حسن داوود

بناية ماتيلد

رواية



بناية ماتيلد

حسن داوود

بناية ماتيلد

رواية

طبعة ثانية منقّحة



الطبعة الأولى، ١٩٨٣
دار التنوير - بيروت

الطبعة الثانية، شباط ١٩٩٩

ص ب ٢٢٦-١١، بيروت، لبنان
فاكس ٧٣٨١٥٩-١-٩٦١

ISBN 2-84289-116-3

الفصل الأول

كانت عمّتي وحدها في البناية. لم يقف أحد من الساكنين على النوافذ الكبيرة التي تضيء الدرج وتفصل بين الطوابق. لم يفتح أحد بابه، بل وبدا لي أنّ الأبواب مقفلة منذ زمن. كانت صامتة وكبيرة، والأقفال الحديدية الضخمة التي تتدلّى منها أوحت بأن عتمة تلفّ الأثاثات القديمة. ومن يعرف ماتيلد يقدر أن يتخيّل الغبار الكثيف ينتشر على الكنبايات والأسرّة وخشب الطاولات.

ليس من أحد في البناية، هكذا حدستُ حين وقفتُ على الشرفة الخلفية التي لعمتي. كانت الشرفات فارغة، والبلاط الأبيض الذي غطّت به مدام لور أرض شرفتها الإسمنتية بدا مغبراً عتيقاً. جمعت الريح أوراقاً وغباراً ورملاً ناعماً عند الأطراف والزوايا. الباب الأخضر مقفل في بيت مدام لور. لن نسمع صوت المقلى يشتعل فجأة ثم ينطفئ. لن نرى مريلة المطبخ النظيفة. وعمتي لن تنتظر الأسئلة تأتيها متلاحقة من المرأة الأرمنية.

كانت عمّتي وحدها في البناية. تخاف من برد النهار الشتوي المشمس لذلك تخرج مسرعة من المطبخ إلى الشرفة، كأنها تركض، فيرتجّ قليلاً ردفاها العريضان وتبدو حركتها ثقيلة. لقد كبرت. بدا ذلك من إكثارها من ارتداء الكنزات العتيقة، ومن الجوارب الصوفية القصيرة، وطريقة إقفالها الباب عند رجوعها من الشرفة إلى المطبخ.

برد النهار الشتوي المشمس يقع على خدّها فيترك ذعراً خفيفاً في النظرة التي ترمقني بها. إنه برد النهار المشمس. يدخل في الخصر المتثاقل والجوارب الصوفية والثياب البالية. يدخل أيضاً في الحائط الذي يفصل بين الشرفات المتوازية، حيث قساطل الماء الثخينة وحيث الأخشاب المتفسّخة لنوافذ المطابخ والحمامات. الحائط الأصفر تقع عليه الشمس الباردة فتردّه إلى زمن كان فيه أكثر سطوعاً. الإطار الخشبي المتفسّخ لنافذة الحمام، تقع عليه الشمس الباردة، فيذكّر بوقت كان فيه متماسكاً نقياً. هذه البناية لم تعد صالحة للسكن. لم تعد صالحة إلا ليتجمّع ساكنوها القدماء على واحدة من شرفاتها. يتحدّثون قليلاً، يضحكون ويلغطون، ثم يتفرّقون بعدها إلى بيوتهم الجديدة.

كل الذين غادروا البناية لم يعودوا إليها. كانت عمتي وحدها في البناية. ما زالت تضع، بحسب طريقتها القديمة، صحون الطعام الممتلئة على طاولة المطبخ. ما زالت تغسل. تمسك القميص، تخبطه في الهواء، فيخرج منه رذاذٌ بارد يتناثر بعضه على يديها ووجهها.

تعلّق الغسيل مسرعة على الحبل ثم تخطو إلى الداخل، إلى حيث أغراض المطبخ الكثيرة.

كأن برد الشمس الشتويّة لا يصيب غيرها. ترتجف منه ممازحة، ثم تدعوني إلى الجلوس في مكان غير المطبخ. كأنها

تذكّر بالغرف الكثيرة وأماكن الجلوس. بيت عمتي يزيح الزيارات المتباعدة التي كنت أقوم بها بين الحين والحين. كلما رأيت شيئاً فيه أروح أتخيّله كيف كان منذ سنين كثيرة. كأنني لم أره بعدها ولم أتردّد عليه، أو كأنني أفتح أبواب الغرف للمرّة الأولى بعد غياب طويل.

هذه البناية لم تعد صالحة للسكن. الدرجات الرمادية الغامقة باتت رقيقة ناحلة لشدّة ما خبطت عليها الأقدام. والدرابزين الحديدي الأسود قد بري وزواياه لم تعد مستقيمة واضحة. لم يعد فيه من زوايا. بدا سطحه بالياً وندياً تنبعث منه رطوبة الأكفّ التي كانت تلتصق فيه. لم يعد حديد الدرابزين صلباً كما كان. وأطراف الدرجات الحجرية سقطت أو تهرّأت من بعض المواضع، خصوصاً في الدرجات العليا. ليس الدرج وحده، وليس الدرابزين وحده، بل اعتقدت أن الشرفات الأمامية الصغيرة، التي يحيطها الحديد نفسه والتي أرضها من أرض الدرج، باتت هشّة في النهار الشتوي المشمس.

لم تعد البناية صالحة للسكن. لقد اكتشفت مدام جاديجيان ذلك مبكرة ومنذ وقت طويل. رفضت ابنتاها أن يُنزل الحمالون أمتعتهما الخاصة. أنزلتا محافظ جلدية وصرراً كبيرة وكتباً ولوحات من الطابق الخامس. كانتا مبتهجتين بالبيت الجديد. مدام جاديجيان غادرت البناية خفيفة مهفهفة كأنها ذاهبة كي تزور أحداً وتعود. زوجها حمل القدر النحاسيّ الكبير الذي في وسطه شيء يشبه الفأس القاطع. قالت مدام جاديجيان لعمتي ذات يوم، وقت لم أكن أدرك معنى ما تقول، أن القدر والفأس هما رمز لأرمينيا التي غادرتها إلى لا عودة.

الحنفية في الحمام الفرنجي تنتمي إلى زمن كان الصانع فيه يُدخل الأبّهة حتى إلى أشياء الاستعمال الصغيرة. كانت الحنفية

في تعدّد دوائرها واختلاف الاتّساع في حلقاتها تشبه شيئاً في أعمدة القلاع القديمة. أفتح الحنفية. يسيل الماء نفسه الذي كان من سنين كثيرة. يتدفّق الماء بارداً صافياً. أنظر من النافذة إلى حائط البناية المقابلة. إنه قريب. هكذا كان، والمسافة لم تتغيّر. أنظر إلى الأسفل، إلى الممرّ الضيّق الذي يفصل البناية عن البناية المقابلة.

مدام جاديجيان لم تعد إلا مرّة واحدة إلى البناية. مدام لور، إثر ذهاب جارتها القديمة، راحت تحكي عن اتّساع البيت الجديد ولمعان بلاطه. لم يكن بعيداً، قالت، وقد دفع زوجها إيجاراً مرتفعاً لا يخطر على بال أحد من ساكني البناية. قالت مدام لور إن جارتها القديمة أخبرتها عن أحوال أليس. لم تعد تخاف من ذلك الشيء الغامض الذي جعلها، في الفترة الأخيرة من سكنهم في البناية، تشدّ كفّيها على مواضع متعدّدة من تنورتها، كأنها تخاف من عابر يندفع من مكان ما، ويشدّ الثوب إلى الأسفل.

ساقا أليس أبيضان. لا يستطيع أحد أن يتخيّل نوع بياضهما إلا إذا رأى شعرها الأسود الناعم. كان قصيراً ويهتزّ كلما حرّكت رأسها. كان قصيراً ومرتفعاً من الخلف ورقبتها من تحته عالية نحيلة.

عمّتي لم تغيّر شيئاً في الحمام الفرنجي. الحنفيات هي ذاتها لم تتغيّر. وأرض الحمام الرخامية لم يحُل لونها. الموقد الذي في أسفل الخزان حرق يدي مرّة. أنظر إلى حيث أثر الحرق، إلى حيث سقطت النافذة الصغيرة الحارقة. لم يزل الحمّام هو نفسه. لم يتغيّر شيء فيه. ما زال زوج عمّتي يضع آلات الحلاقة خلف المرآة التي فوق المغسلة. أخذتُ الأنبوب، وضعتُ بعضاً مما فيه على ذقني، وبدأت الرغوة في المرآة العتيقة التي لم يعد صالحاً منها إلا بقعة في الوسط.

الحمام الفرنجي كان يغوص بالضوء الساطع. تنزل الماء غزيرة

من المرشّة العالية فيتصاعد البخار من جسدي الصغير. الحركة الكثيرة التي تعلو من المماشي والغرف كانت تصل أصواتها إلى الحمام الساخن المضاء. كانت تصل إلى تحت المرشّة فتجعل الحمام في وسط الجلبة. النظافة كانت أن يتمتّع الولد المستحمّ بتجواله من غرفة إلى أخرى. يمتلئ بعطره الذي ينبعث منه. وينتشر وجهه الزاهي على المرايا والبلاط والأسرّة.

لقد غيّرت عمّتي ألوان الحيطان والسقوف بعد رحيلنا. توسّعت في البيت. أقفلت الأبواب التي تؤدّي إلى الردهة الكبيرة وغرفة الطعام بعد أن وضعت فيهما كنباياتها وكراسي وطاولة جديدة. وضعت أيضاً لوحة كبيرة تمثّل منظراً طبيعياً على الحائط المواجه لباب الردهة الرئيسي. عمّتي لم تغيّر بعدها أثاث غرفة الطعام. وأثاث الصالون بقي كما رتبته. منذ مدة لم تعد تنشغل فيه لطيلة ما تُبقي الأبواب مغلقة.

أقف أمام الباب المغلق على الغرفتين المغلقتين. أدير المقبض وأدفع الباب على مهل فتظهر كنبايةٌ رابضةً في الضوء الخفيف. قال لي حبيب إن أباه أرسل في طلبه إلى فنزويلا. كان أسمر وكسولاً ويتكلّم ببطء شديد. قال إنه سيسافر مع أمه وأخته إلى هناك. بدا لي كبيراً وهو يقف ببيجامته المقلّمة السميكة، في وسط الغرفة التي جعلتها عمّتي غرفة طعام مقفلة.

كنت أنام في زاوية هذه الغرفة، قريباً من الباب المفضي إلى الشرفة الصغيرة. كانت الغرفة أكثر سطوعاً مما هي الآن. دافئة وفسيحة، وحبيب يكثر من المشي بين البابين المتقابلين أمامها. لم يطل انتظاره. سافر مع أمه. هكذا، في لحظة خاطفة. كأن الطائرة مرّت من فوق البناية وأخذته عن سطحها.

لم تترك أمّه في البيت شيئاً يدلّ على أنهم كانوا من ساكنيه. حتى خزانة الموبيليا الكبيرة، والتي كنت أعتقد باستحالة إخراجها

من الأبواب، أخذتها أم حبيب مع الأغراض الأخرى إلى بيت أخيها البعيد. هناك، في بيت أخيها، وضعت الأغراض في غرفة أقفلت بابها بانتظار أن ترجع مع زوجها من فنزويلا.

رحيل أم حبيب وولديها جعل البيت أوسع قليلاً. عمّتي وأمي أعادتا توزيع الغرف من جديد في ما بينهما. لم أتساءل يومها لماذا لم تقسما البيت بحسب الغرف المتجاورة. حصتنا في البيت كانت الغرفة الأولى، والغرفة الأخيرة. بينما كنباياتنا ذات القماش النبيذي الغامق والجوانب الخشبية اللامعة كانت في الصالون، في الردهة الكبيرة، جنباً إلى جنب مع كنبايات عمّتي وطاولاتها الصغيرة الموزّعة.

حين فتحتُ الباب الذي يفضي إلى الشرفة الصغيرة، رأيت الشمس الشتوية تلوّن أعالي البنايات التي تفصلها عن بنايتنا الحديقة الواسعة الكبيرة. لم أكن قد رأيت هذا المشهد من قبل. لم أفتح الباب على البنايات التي تقع خلف الحديقة. كنت، حين أفتحه، أحدّق بالدرابزين وبأرض الشرفة، أو أنظر إلى الطريق، حيث الشارع الهادئ والمارّة الذاهبون إلى الحديقة.

الشرفة الأخرى الموازية، الشرفة الثانية التي بابها من غرفة أخرى، كانت فارغة على الدوام. قلّما وقف أحد عليها. ليس في بيتنا وحده، بل في بيوت الجيران أيضاً. بيت الكيلاني في الطابق الثاني كانوا ينحشرون في الشرفة ساعات كل عشيّة، بينما الشرفة الموازية فارغة كأنها ليست في بيتهم.

عمّتي، المرتجفة من البرد، والتي لم تعد تجد حرجاً في ارتداء الجوارب الصوفية القصيرة، تركت البيت كلّه وسكنت في المطبخ والغرفة الملاصقة له.

لقد جعلت من الغرفة مكاناً للجلوس والنوم النهاري واستقبال الزائرين من الأقرباء. لم يكن يهمها أن تملأها بأثاث

لائق. يكفيها أن يعرف زوّارها أن لديها أثاثاً في الردهة الكبيرة وصالة الطعام المقفلتين. مقاعد كثيرة توزّعت في أنحاء غرفة الجلوس، قديمة وهابطة من أكثر من موضع يغطيها قماش مزيّن بزهور صغيرة باهتة. عمّتي شديدة الحرص على النظافة ولولا ذلك لما حملت الوعاء البلاستيكي الأزرق وراحت تنشر ثيابها المبلّلة الرطبة على حبل الغسيل الذي يمتدّ من أول الشرفة حتى آخرها.

أبو إبراهيم الكيلاني مات ميتة طبيعية. أيقظته زوجته فلم يستيقظ. هزّته مرّات إلا أنه بقي ممدّداً كالخشبة. أيقنتْ. أطلقت بكاء كان خافتاً أوّل الأمر ثم أخذ يتعالى حتى وصل إلى سمع عمّتي في الطابق الخامس وقالت إن أحداً قد مات في بيت الكيلاني.

بكاء أمّ إبراهيم انضمّت إليه أخريات. كان بكاء متواصلاً وعلى وتيرة واحدة. وأنا أتنصّت من النافذة المفتوحة، تصوّرت أن النسوة يبكين في الوقت الذي يقمن فيه بأعمال أخرى. مثلا، أخت أبو إبراهيم كانت تبكي وعيناها مفتّحتان شديدتا اليقظة كأنها تحصي من وصل من المعزّين. أمّ إبراهيم تحمل الفرشة بين يديها وترفعها إلى الأعلى، تضعها فوق الفرش المستّفة، وتتلفّت باحثة عن عمل آخر تقوم به، بينما نشيجها الرتيب متواصل ولا ينقطع.

كنت أتخيّل الجلبة والبكاء يصعدان من الغرفة التي تحت نافذتي. ومرتبة الفرش التي تضيف إليها أم إبراهيم واحدة كانت

في نفس الزاوية التي حشرت فيها أمي فرشاتنا الكثيرة. الغرفة القريبة من المطبخ والمؤدّية إلى الشرفة الخلفية الكبيرة كانت نفسها في بيتنا وفي بيت أم إبراهيم في الطابق الثاني. الأثاث موزّع بشكل متشابه في الغرفتين. الفرش في زاوية، وكومودينة الراديو في أخرى، وطاولة وكنبايات بالية في المناطق الوسطى من الحيطان.

بيت الكيلاني هو البيت الوحيد في البناية الذي أستطيع أن أتخيّل ما بداخله. أستطيع مثلاً أن أقول كلاماً صحيحاً عن الدرف الكبيرة التي للخزانة في غرفة النوم. أستطيع أيضاً أن أتخيّل الجوانب الخشبية المنتفخة التي للكنبايات، وكذلك لون الكنبايات أيضاً. بيت الكيلاني لم يضيفوا شيئاً يذكر على الأثاث العاري ذي القطع الضخمة الذي كنت أشاهده في بيوت أقربائي من العائلة. لم يغيّروا شيئاً في ترتيب أثاثهم وتوزيعه، لدرجة أن بيتهم الذي لم أدخله أبداً كان أليفاً لي وكنت أحسب أنني أستطيع أن أتجوّل فيه دون خجل من أصحابه.

لكن في بعض المرّات، خصوصاً حين أشاهد أمّ إبراهيم الكيلاني وأولادها وحماتها على الشرفة المواجهة للحديقة، كنت أحسب أن في البيت بعض الزينة الخشبية الملحقة بالأثاث. نوع من الأثاث الإضافي الذي توارثه بيت الكيلاني ونقلوه من بيت إلى آخر. كانت الأخشاب مستطيلة وتحتوي على نقوش من جهة واحدة في وسطها. كأنني قد رأيتها، لكن لم أفلح مرة في أن أضع أياً منها على طاولة أو رفّ أو حافة نافذة. لم أجد أماكن لأثاثهم الإضافي لكنه كان موجوداً، محفوظاً في خرق وموضوعاً بعناية في واحدة من التتخيتتين الكبيرتين.

أمّ إبراهيم وأولادها وحماتها ينحشرون كل عصر في شرفة من الشرفتين المتوازيتين المطلّتين على الحديقة. ينحشرون في شرفة

واحدة ويتركون الأخرى فارغة خالية. لم يكن على الشرفة متّسع ليلعب الأولاد، أو حتى ليغيّروا أماكنهم. يجلسون، مثل أمّهم وجدّتهم، دون أن يبدوا ضيقاً أو مللاً. يحدّقون في الحديقة الكبيرة، وبين الحين والحين، يقف واحدهم، يرفع رأسه من فوق الدرابزين الأسود، وينظر إلى الشارع الذي يفصل البناية عن الحديقة.

الأولاد يطيعون أمهم، ولولا ذلك لما استطاعوا أن يجلسوا مثلها كلّ عصر على الشرفة. إبراهيم لا يبارح البيت إلا إلى المدرسة. وفوزية التي تعاني من التهاب دائم في اللوزتين كانت برغم نحولها، كأنها أمها. كان صوتها يشبه صوت أمها، وكذلك شعرها الكستنائي المائل إلى الشقرة. قدم فوزية النحيلة تشبه قدم أمها السمينة. فوزية كانت تكبر إلى أن تصير مثلها لدرجة أنني كنت موقناً أن الأم تحتفظ بثيابها كي تلبسها فوزية عندما تكبر.

أمّ إبراهيم أمام باب بيتها في الطابق الثاني منهمكة مشغولة وثوبها مبقّع بالماء. تغسل الباب وزجاج الباب بأن ترفع فوهة الإبريق إلى أعلى ما تستطيع. على الباب، كان لونها أبيض أبلهاً وفمها الكبير ينفرج عن أسنان ساذجة عديدة. تستوقفني على الدرج وتسألني عن أمي وعمّتي. تشبه ابنتها فوزية. وأيضاً تشبه أمي، كأنها قريبة لها أو جارة من جارات أهلها في البلدة.

بيت الكيلاني كانوا يُشاهَدون إما على الشرفة، يقعدون صفوفاً كأنهم يجلسون في سيارة، أو على الباب يهمّ أحد منهم بالخروج. أبو إبراهيم لم يكن أحد يراه. مرّة رأيته سائراً على الرصيف. أصلع وأسمر ويرتدي قميصاً عادياً أبيض. رأيته من الخلف ولم أستطع أن أتخيّل وجهه. كان أميل إلى القصر وظننته يعمل في مصنع أحذية: يضع الجلد في القالب الخشبي ويشدّه من أطرافه إلى الأسفل، إلى كعب القالب.

يمشي مطرقاً. رأسه إلى الأسفل ويداه لا تتحركان. دائماً يمشي هكذا قال أبي. قال أبي أيضاً إن أبو إبراهيم هو الوحيد الذي لا يرمي السلام على من يصادفه على الدرج، كأنه يسكن في بناية أخرى.

أنا، بسبب مما كان يردده أبي عن أبو إبراهيم رحت أظنه أصغر من الرجال الذين يكثرون من إلقاء التحيات على الدرج. كان لا يبدو أباً لأولاد، ورحت أظن أنه لا يتكلّم مع أولاده في البيت. فقط يتكلّم مع أم إبراهيم التي تتولى شؤونه. تضع له أكلاً على الطاولة الصغيرة في غرفة الجلوس. يأكل وهو يدير وجهه إلى الحائط. وحين يفرغ من طعامه، يقوم، رافعاً يديه الاثنتين، كأنه يحملهما إلى المغسلة ويخاف أن يصطدما بشيء.

أبو إبراهيم أول من مات في البناية. أكل وحمل يديه إلى المغسلة. غسلهما ونام ولم يستيقظ.

بعد أن مات لم يغيّروا شيئاً من عاداتهم. استمروا في جلوسهم على الشرفة الصغيرة، وحافظوا على الترتيب الذي تعودوا عليه. إبراهيم وفوزية في المقدّمة ملاصقين للدرابزين، وأم إبراهيم والجدّة تجلسان على كرسيين متلاصقين وتتناوبان على حمل الصغير. أما أخت أبو إبراهيم فتجلس منفردة. تنظر إلى حيث لا ينظرون. إلى نقطة في الممر الترابي الذي يوصل إلى بيت ناطور البناية.

أبو إبراهيم كان غريباً في البناية، وكذلك عائلته. لم أرَ أحداً منهم يرنّ جرس الشقة المتلاصقة. لم يعبروا بين الشقق والبيوت كما كان يفعل أكثر سكان البناية. هم غرباء عن البناية التي كانوا يملكونها. والد أبو إبراهيم اشتراها من الرجل الذي حمل ثمنها وطار إلى أوروبا، ثم باعها للكهل القصير الأشيب الشعر. كان مالكها الجديد، حين يرغب في أن يتفقّد أوضاعها، يقرع جرس

بيت الكيلاني ويدخل قبل أن يلقي التحية.

أبو إبراهيم وصاحب البناية كانا يشتركان في عزوفهما عن الجيران والمستأجرين. وحين يجلسان، يتداولان كلاماً لا يقتصر على البناية وحدها بل يصل إلى مناطق وشوارع أخرى في المدينة. يجلسان متقابلين، ويتكلّمان كأنهما يحاذران ان يسمع كلامهما أحد.

صاحب البناية يسكت طويلاً ثم يقول شيئاً تذكّره. أبو إبراهيم الساكت أيضاً، يسمع ما تذكّر محدِّثُه. يتحدثان أو يسكتان. كأنهما أب وابنه المتزوج ينتظران أن تنتهي الزيارة الثقيلة التي طالت.

صاحب البناية يضع إصبعين على ذقنه ويداعب الجزء الأسفل من خديه. كأن لا أحد يستعجله في تذكّر ما سيقول بعد قليل. ينظر إلى نقطة في الحائط على علوّ قليل من رأس أبو إبراهيم، وتشعّ في رأسه حديقة البناية الرملية. ينظر إلى أقصى الشرفة فيرى بعضاً منها. الحديقة الرملية أكبر من مساحة البناية التي تحجبها عن الطريق. في وسطها بركة فارغة، جافة وليس ما يوحي بأن في داخلها ماء. كانت جافّة وسطح حائطها المستدير متشقّق ينشر ناطور البناية عليه غسيله القليل.

في الحديقة الرملية أيضاً أربع نخلات كبيرة تثمر بلحاً في الصيف. صاحب البناية أوصى الناطور أن يوزّع نصفه بالتساوي على ساكني البيوت. حصة أبو إبراهيم كانت كبيرة، إذ يأخذ نصف ما تحمله النخلة التي تثمر بلحاً أصفر، ويترك بلح النخلات الثلاث للمستأجرين.

كان ذلك الامتياز الوحيد لبيت الكيلاني. كانوا يشعرون بميزة خاصة، وأم أبو إبراهيم كانت تقلّب وجوهاً وغرفاً حين يرفع أبو محمود الناطور اللكن الواسع عن رأسه ويضعه أمامها على

الأرض. تشير إلى وسط اللّكن بعصاها فيما هي تستدعي وجوه الجيران واحداً بعد واحد.

حين مات أبو إبراهيم فقد صاحب البناية البيت الوحيد الذي كان يتردّد إليه. صار المستأجرون بعدها، كي يدفعوا الإيجار في نهاية كل شهر، ينزلون إلى محل لبيع الألبسة القطنية في سوق الطويلة. يدفعون الإيجار لصاحب المحل الذي يوصله إلى صاحب البناية.

صار، في فترات متباعدة، يُشاهَدُ وهو يقطع مبطئاً الشارع الذي تقع فيه البناية. حين يصل إلى مدخلها، يلتفت إلى واحدة من الشرفات، يشبك يديه الإثنتين أسفل ظهره، ويلقي نظرة متفحّصة على المدخل ومناور الدرج.

أبو إبراهيم كان مقطوع الصلة بالبناية حين اشتراها أبوه وحين باعها، وحين اكتفى بأن سكن فيها. كان بيته استمراراً لحيّ المنلا الذي يقع لجهة الجنوب من البناية ويفصلها عنه بنايات عتيقة وقطع أرض فارغة. في الشارع الذي لجهة الجنوب، عند مدخل حي المنلا وقبله بقليل، بيوت مُلئت مداخلُها بأحواض زريعة وأشجار مزهرة ومصاطب باطونية ورملية. الرجل الذي من بيت الغزّاوي يقف أمام بيته الذي بناه على جزء من أرضه الواسعة. كان طويلاً ويتدلى كرشه المستدير من فوق حزامه المهترئ. يقف على باب محله الذي كل بضاعته باتت لا تؤكل لشدة ما صارت قديمة. يتكلم مع سائقي السيارات العمومية التي تعبر الشارع، ومع أقربائه على شرفات البيوت التي فوق مستوى الأرض بقليل، مولياً ظهره لباب المحل وللمارة الذين يقصدون الدكاكين المزدحمة بالشارين في أعلى الشارع.

بيت أبو إبراهيم كان امتداداً للشارع الذي يقع لجهة الجنوب، ولبيوته ذات الأحواض والأشجار والمصاطب. حين رأيته على

الطريق خارجاً من البيت، كان ذاهباً كي يسامر صديقاً في حديقة بيته. أو صديقاً آخر جالساً على شرفة بيته القديم. لأبو إبراهيم الكيلاني أصدقاء وأقرباء تستطيع أن تعرفهم دون أن يدلّك أحد عليهم. تعرفهم من شجرة غاردينيا، أو من بيت مختلف عن محيطه، أو من جلوسهم على كراسٍ خيزرانية وسط المناطق المزدحمة.

الباب الأخضر السميك كان مقفلاً على البرد الذي في الخارج. نظرة إليه، إلى طلائه الداكن وخشبه الثقيل، كانت توحي بشيء من الدفء لا يلبث ان يزول حين تقع أنظارنا على المجلى العاري، على الحنفية التي تنزّ الماء نقطة نقطة، وعلى بلاط المطبخ الذي لم تستطع حصيرة القش ان تغطي كل مربّعاته.

كان أخي علي جالساً بقربي على الحصيرة، وكان بين الحين والحين يسند ظهره إلى حافة خزانة المطبخ ويمد رجليه الطويلتين فتبدوان ناحلتين شاحبتين في الضوء الخافت القليل.

لقد وضعونا في المطبخ، أنا وهو، أما أخي الصغير فكان في الصالون مع قريباتنا اللواتي أتين من بيوتهن. أنا وعلي في المطبخ. كان صامتاً وبدا صبره نافداً بينما صوت كالهدير الخفيف ينبعث من بابور الكاز الموضوع على طرف المجلى أمامنا.

تدخل عمتي إلى المطبخ. لا تكلمنا، بل تذهب مباشرة إلى خلف الباب في الزاوية حيث برميل الغسيل، تضع فيه ثياباً متسخة وتتجه بعد ذلك إلى الطنجرة الصغيرة التي على النار،

تلقي عليها نظرة سريعة ثم تعود إلى الغرف.

أخي علي كان يحرص على الاهتمام بي، مدفوعاً بإحساس مبكر بالمسؤولية. كان صامتاً أمامي، مطبقاً شفتيه ويبدو خداه من جراء ذلك متهدّلين رخوين. كان أحياناً لا يعرف كيف يُظهر نحوي عطفه المبكّر فيضع يده على كتفي ونحن جالسان في المطبخ، فيرغمني على أن أستقيم في قعودي على الأرض لكي أحافظ على الوضع الودي الذي أراده.

تدخل عمتي الثانية، عليّة، لتحضر شيئاً. تقف بين الحنفيات وبابورالكاز الهادر. تخطو خطوات قصيرة بينها وقد وضعت في قدميها مشّاية بيتية تظهر منها مواضعُ كثيرة من قدميها المكتنزتين اللتين راحتا تضغطان على الخيوط الجلدية الرقيقة التي تحبسهما. عمتي عليّة أيضاً لم تقل لنا شيئاً بل كانت بين الحين والحين تنظر إلى الطنجرة الصغيرة على النار، حتى إذا ما تعالى البخار منها، أسرعت إلى الداخل لتشير عليها القابلة بما يجب أن تفعله.

لم نكن ندري في أية غرفة كانت أمّنا، لكن لا شك ان شيئاً خطيراً كان يحدث في الداخل. كلانا كان يعرف أن المقصّ والشيء المعدني الآخر اللذين في الطنجرة الصغيرة سيستعملان في عملية الولادة. كانت تظهر من المقص الدائرتان اللتان في أعلاه، حيث مواضع الأصابع. أنظر إليهما فيخفت النور قليلاً في المطبخ وتسري كآبة عابرة بيني وبين أخي الذي زاد من إطباق شفتيه وتهدّل خديه.

أمي في واحدة من الغرفتين المفتوحة إحداها على الأخرى بباب في الوسط، نائمة على ظهرها وفي شبه غيبوبة، بينما عمتاي تكثران من الحركة في الغرفة أو تغادرانها بحسب ما تطلب القابلة.

كانت أمي نائمة وضعيفة. ترشح عرقاً في قميص النوم

المخملي الأبيض. وحين أتت عمتي وأفرغت الماء الغالي من الطنجرة الصغيرة، طرفت عين أخي، أما أنا فأحسست بطمأنينة هادئة في المطبخ ذي الضوء الخافت والباب الأخضر، السميك، الذي يمنع تسرّب الهواء والبرد من الخارج.

لم تسمح عمتي لنا بأن نجلس في الصالون مع القريبات اللواتي أتين للمناسبة. كانت واحدة منهن تأتي إلى المطبخ كي تغلي قهوة للزائرات، تسألنا إن كنا جائعين ولا تنتظر أن نجيب. أتت القابلة. لم تنظر إلينا، وبدت شديدة الانهماك. رجعت مسرعة إلى إحدى الغرفتين حيث كانت أمي، في الغرفة الدافئة من وهج الفحم الذي يعبق في السقف وينتشر بين الملاءات.

الغرفة المقفلة دافئة حارة. وحين رجعت عمتي عليّة إلى المطبخ كان وجهها محمراً ويكاد ينضح منه العرق. وقفت أمامي وفتحت الدرفة العليا من الخزانة الخشبية. كان قوس قدمها هابطاً قليلاً ألى أسفل كأنه بطن صغيرة. أقفلت درفة الخزانة ثم خرجت وقدماها قويتان صلبتان على الأرض.

كانت القابلة متجهمة في الغرفة الدافئة. حين دخلت من الباب وبيدها محفظتها الجلدية المنتفخة لم يُخفِ أخي علي خوفه. كانت بدينة لكن تمشي بحيوية كبيرة.

فور وصولها أخذت تصدر الأوامر إلى عمتي كأنها عيّنت وقتاً للولادة لا يجوز أن تتعداه.

حين أطلقت أمي الصرخة القوية انفجر أخي الصغير باكياً في الصالون. انفجر بكاؤه دفعة واحدة وأخذ يتسارع ويشتد ولم تستطع النسوة أن يسكتنه. أنا وعلي وجدنا عزاء في بكائه. ابتسم لي قليلاً بينما كان شديد الترقب وهو ينتظر صرخة أمي الثانية.

كانت بنتاً. دخلت عمتاي سوياً إلى المطبخ. لم تكونا متهلّلتين. نادتهما القابلة فهرعتا إليها. بعد قليل أوصلتاها إلى

الباب. كانت تسير متعبة وفي يدها محفظتها الجلدية المنتفخة. خرجت. دخلت نبيهة الشيباني التي تسكن في الطابق الرابع فأضفت على البيت بهجة مفاجئة. كانت نبيهة الشيباني تحاول ان تكون قريبة ودودة، فراحت تتكلم مع قريباتنا اللواتي لا تعرفهن كثيراً، أو اللواتي لا تعرفهن ابداً.

عمتي لم ترتبك في الحديث معها. كانت تحب ذلك، وكانت، قبل أمي وعمتي عليّة، تقول كلمات سمعتها من بيت الشيباني. كانت تتكلم مع نبيهة كأنها تغلق أسراراً صغيرة معها، أو كأنها تكمل لها حديثاً قطعته البارحة.

لا يستطيع أحد من الأولاد أن يتخيّل ماذا خلف النافذتين المطلّتين على الطريق. كانتا مقفلتين. وحين تنشقّ ضلفة من أحداهما لا يظهر من ورائها إلا وجه الروسية النحيل، ذو الشعر الابيض، ومن وراء الوجه، عتمة البيت التي تجعل من المستحيل، لمن يرمي النظرة الخاطفة، أن يرى شيئاً مما في الداخل.

النافذتان المقفلتان هما في موضع الشرفتين الصغيرتين في الطوابق الأعلى. لكن، لأن الطابق الأول قريب من الطريق، على علوّ قليل منها، رأى من بنى البناية أن يستعيض عن الشرفتين بحديقة صغيرة، تقع تحت النافذتين. لكن المرأة النحيلة الوجه والبيضاء الشعر لم تشأ أن تعتبر الحديقة امتداداً لبيتها.

تركت ترابها ييبس. وأذبلت النخلة الفرنجية التي في زاويتها فراحت تبدو في معظم أيام السنة بقيّة من شجرة عملاقة أو جذعاً قزماً.

الأولاد الذين يأتون من الأحياء المحيطة بالبناية، كانوا يبيّتون شيئاً لبيت الروس الذي على الطريق. كان معرّضاً لصراخهم

العالي وحجارتهم الصغيرة، يمسك الولد حجراً صغيراً أو خشبة أو ما تقع عليه يده ويرميه على النافذة الخشبية المقفلة. يكرر فعلته ببطء لكن بتصميم، حتى في لحظة غير متوقعة، تفتح الروسية درفة النافذة، وتبدأ التحديق بالولد الذي يرمي الحجارة وبالأولاد المحيطين به.

تحدّق فيهم دون أن تحرّك وجهها، أو حتى عينيها. تقف شاخصة وتنظر إلى نقطة بينهم، هكذا، كأنها تفكّر بمسألة أخرى لا علاقة لها بالأولاد والحجارة التي كانت تتساقط على النافذة.

يقف الأولاد مسمّرين كلٌّ في مكانه، ويسري في أجسادهم رعب من الوجه الصامت النحيل. لكن، رغم ذلك، يديمون النظر إليه. يمكثون هكذا حتى يبدأ واحدهم بصرخة مترددة: «روسيّة» يلحقها بأخرى مثلها لكن أقرب إلى أن تكون موقَّعة هذه المرة، ثم، يصحبه الأولاد في إطلاق الثالثة، بإيقاع واحد. يرددون الهتاف مرات متلاحقة، فيما هم يخبطون بأقدامهم الأرض ويقطعون مساحة الرصيف، التي قبالة النافذة، جيئةً وذهاباً.

كأن المرأة النحيلة الوجه تشاغلهم ببقائها على النافذة. تخرج ابنتها من الباب فيتفرّق الأولاد ويتبعثرون. يركضون إلى المفارق المؤدية إلى أحيائهم ويختبئون خلف حيطان البنايات التي على المفارق. ابنة الروسية الطويلة الممتلئة وذات العينين الزرقاوين تحافظ على سرعة مشيتها وهي تلحق بالأولاد إلى المفارق. لا تستعجل، بل تمشي بخطى ثابتة على الرصيف، وقبل ان تصل، يغادر الأولاد مواقعهم خلف الحيطان. ويركضون إلى المفارق التالية التي في أعلى الشارع حيث يكونون أقرب إلى بيوتهم.

إبنة الروسية تقترب من عقدة الشوارع قبل حيّ المنلا بقليل. تقترب بالثبات نفسه الذي بدأت به خطواتها الأولى. لكن، في

نقطة ما قبل عقدة الشوارع بخطوات، تقف فجأة. تبقى واقفة لثوان قبل أن تستدير، بأقدام ثابتة أيضاً، وتبدأ عودتها إلى البيت.

شاع بين الأولاد أن إبنة الروسية تتمرّن على الملاكمة في بيتها. حين قال لي أحد الأولاد ذلك تدلّى كيس التمرين من السقف في واحدة من غرف بيتهم ووقفت هي بمواجهته تلكمه لكمات متتالية بينما تصلبت عضلات فخذيها المثبتين في الأرض.

حين تخرج الأم الروسية من بيتها تسلك طريقاً تعوّدت عليه منذ سنوات كثيرة. كانت ضئيلة الحجم وفي قدميها حذاء يشبه أحذية البنات الصغيرات. تمشي بسرعة لا يوحي بها وجهها المتغضّن النحيل وشعرها الأبيض. تمشي كأنها ذاهبة إلى موعد تأخرت عنه، سالكة الطريق الذي سلكته ابنتها إلى عقدة الشوارع. وحين تصل إلى هناك، تنحرف إلى شارع جانبي صغير متجنّبة عبور الأحياء المزدحمة. الشارع الجانبي يجعل المسافة أطول. تصل إلى البيوت القديمة نصف المتهدمة والتي بينها قطع أرض مزروعة. تعبر المنعطف إلى أعلى، حيث الشارع الذاهب إلى ما يشبه الهضبة. على الهضبة كانت البناية القديمة التي هي امتداد، من جهتها الأخرى، لبنايات الشارع الشعبي المزدحمة السكان.

تدخل الروسية البناية القديمة. يراها واحد من الأولاد وهي تستعجل خطواتها الأخيرة في المدخل. تسرع لكي تتجنب سكان البناية الكثيرين الذين ملأوا الشرفات المواجهة للطريق بأخشاب وخزائن قديمة وأوعية معدنية وبلاستيكية. ما زالت الروسية الثانية ساكنة في البناية. قليلاً ما تخرج لكن بعضهم رآها. قال الأولاد إنها لا تشبه الروسية التي في بنايتنا لأنها أميل إلى البدانة، وتبتسم لجيرانها الذين تعرفهم. ومنهم من يزورها بين وقت وآخر.

الروسية التي في بنايتنا وزوجها الروسي لا يخرجان من البيت في وقت واحد. حين تذهب هي لزيارة الروسية الثانية في بيتها الذي على الهضبة يبقى زوجها في البيت، وحيداً أو مع ابنته.

يخرج قبيل الغروب. الدرجات الثلاث التي بين بابه ومدخل البناية يقطعها ببطء شديد. يمسك الدرابزين الحديدي بكلتا يديه ويقوّس ظهره باتجاهه. حين ينتهي من الدرجات يقف لثوان على عتبتها. يسوي هندامه فيما هو يضع إحدى رجليه بمحاذاة الأخرى ويأخذ عصاه التي علّقها بمرفقه ويضع طرفها المستدير في قبضة يده.

حين يخرج من مدخل البناية يذهب في الإتجاه المعاكس للذي سلكته زوجته. يمشي ملاصقاً الحائط، وحين يصل إلى طرف الدكان المواجه لباب الحديقة يقف قليلاً ليرتاح. حين يكمل سيره يعرف من يراقبه أنه سينتقل إلى الرصيف المقابل قبل أن يبلغ نهاية الشارع. يقف في النقطة ذاتها كل يوم. يستدير ببطء شديد. ويبدأ بالتقدم جاراً رجله الضعيفة الواهنة إلى حيث الرصيف وسور الحديقة الذي سيسير بمحاذاته.

لا أعرف من بيت الشيباني إلا المسافة التي تقودني من الباب إلى غرفة الجلوس. بينهما كان الممشى، فارغاً في الخطوات الأولى، ثم، حين ينعطف إلى اليمين، يضيق بخزانة الكتب الكبيرة المملؤة بالكتب والأقلام والصور والدفاتر الصغيرة التي توضع في الجيوب. كانت تطفح بالاشياء التي هي أشبه بالهدايا.

الباب الذي على يسار الممشى هو باب المطبخ الذي لا أثر فيه للصحون. لا طعام على الطاولة، ولا طناجر أو أوعية على فرن الغاز الذي وضعته نبيهة الشيباني مباشرة تحت الشباك.

كانت تجلس على الكنباية الكبيرة في غرفة الجلوس وحولها أدوات التسلية المسائية: نظاراتها ومجلات نسائية ملونة وطابة خيطان وصنارتان. أمامها، على مسافة قليلة من الكنباية، كرسي منخفضة كانت تستعملها متّكأ لقدميها حين يطول بها الجلوس.

من يرى نبيهة الشيباني جالسة أو مسترخية بين أشياء سهرتها يظن أنها تستطيع أن تمكث ساعات صامتة لا تتكلم. حتى زوجها، الذي كان على بعد خطوات قليلة منها، كان ينسى أنها

في الغرفة ويلتفت بين وقت وآخر كي يتحقق من أنها لم تغادر .

كان يجلس مواجهاً الحائط مديراً ظهره للباب الذي نلج منه الى غرفة الجلوس . تقول عمتي انه يكثر من شرب العرق . وتؤكد أنها ما من مرة نزلت إلى بيتهم في الطابق الرابع إلا وشاهدته جالساً قبالة الحائط الذي أمامه ، متناولاً أكله على مهل كأنه يسامر أحداً يجلس على الكرسي المقابل .

أنا أيضاً أراه ، كلما دخلت إلى بيتهم ، جالساً على الكرسي وأمامه الصحون الصغيرة . كان ودوداً . يلتفت حين يرانا قادمين ويدعونا إلى العشاء لكن لا يلحّ في ذلك كي لا يسبب الحرج لعمتي . أتذكره أيضاً على الدرج متكئاً على الدرابزين الحديدي الأسود ، أو متمهلاً لاهثاً بين الطوابق .

كان يتبادل التحية مع أبي . يقولان كلاماً قليلاً لكن يكثران من الابتسام يظلان يتبادلانه إلى ان يجرّني أبي فنصعد الدرج مسرعين ونتركه ليهيّئ مفتاح البيت قبل طابق من وصوله .

على الطاولة كان يرتدي ثياب البيت التي يوليها عناية تفوق عنايته بثيابه التي أراه فيها على الدرج . كان يرتدي روباً أسود ذا نقوش كبيرة ، ويضع في قدميه مشاية طرية لا يستعملها إلا للجلوس أو للمشي بين الغرف .

نبيهة الشيباني تظلّ تتحدث مع عمتي في التعديلات التي قرّرت إجراءها على غرفة الجلوس . تقف في زاوية الغرفة وتمشي في اتجاه الطاولة راسمة بإصبعها خطاً هو حدّ الخزانة التي ستوصي عليها . تقول إنها ستجعل المكان الذي يجلس فيه زوجها فارغاً إلاّ من أردية كتّانية تهبط من السقف وتلامس الأرض . في الجهة المقابلة ستضع الراديو والأسطوانات . سعيد الشيباني ينظر إلى الحائط الذي أمامه ، وبين الحين والحين ، يسأل عمتي اسئلة سريعة مقتضبة عن البناية والماء والجيران وشغل زوجها .

حين تسترسل نبيهة الشيباني بالكلام لا تعود هي نفسها التي كانت ساكتة وسط أدوات تسليتها المسائية. تتكلم دون توقف، فتنتفخ رقبتها ويتقدّم كتفاها قليلاً إلى الأمام فتبدو نحيلة عصبية.

كانت رشيقة الحركة رغم أنها قد تجاوزت الخمسين. وحين تذهب إلى المطبخ لتعدّ القهوة لعمتي تمشي بخطى سريعة واسعة حتى ليبدو ساقاها الطويلان غير متناسبين مع نصفها الأعلى القصير.

غرفة الجلوس تصبح أليفة مضيئة حين تسترسل نبيهة الشيباني بالكلام. حتى أنني بتّ لا أشعر بالحرج من الجلوس على طرف من الكنباية الكبيرة بينما تجلس هي على الطرف الآخر. كانت الغرفة المكان الأليف الوحيد لأن المرأة تعيد تأثيثها قبالة أعيننا مرات في الزيارة الواحدة. وفي كل مرة، كنت أتخيل نفسي مزيحاً الكنباية الكبيرة والكراسي والطاولة الواسعة وأضعها في زاوية قبالة الدرج بانتظار أن يأتي الحمالون ويرمونها بعيداً.

غرفة الجلوس وحدها الأليفة. أما الممشى، المكتبة التي في الضوء الخافت والتي تفيض منها الكتب والصور والدفاتر الصغيرة التي بحجم الكف، فقد بقيت كما شاهدتها للمرة الأولى.

حين تقف كاتيا قبالتها لتأخذ منها كتاباً، تنفق وقتاً طويلاً وهي تمرر أصابعها بين الأوراق والدفاتر وأغلفة الكتب. كانت تأتي من غرف النوم قاطعة المسافة الطويلة مارة بالصالون وبالمدخل كله. تمرر أصابعها على خشب الرفوف. وحين تحدّق في الرف العالي، تتريث قليلاً، ثم تمد جسمها إلى أعلى فيرتفع ثوبها عن ساقيها الممتلئين.

كاتيا تلقي التحية على عمتي كأنها نعسانة أو كأنها استفاقت لتوها من النوم. ترجع إلى غرفتها من طريق الممشى والصالون. تعبر الصالون البارد المقفل دون أن تلتفت الى قطع الأثاث الموزّعة

في أرجائه وزواياه. تضع قدمها على السجادة الدافئة، وحين تصل الى غرفتها لا تلتفت الى أختها المستلقية، ولا إلى أخيها الذي يقرأ على مكتبه في الغرفة الملاصقة.

قامت أمي بمحاولات عديدة لتقنع عمتي بأن تجري توزيعاً جديداً للغرف. قالت إنها لا تستطيع أن تركن إلى بيتها. غرفة في أول البيت وغرفة في آخره. كأنها في بيتين اثنين بعيد أوّلهما عن ثانيهما. عمتي لم تكن تبالي بمحاولات أمي المتكرّرة لأن غرفتيها كانتا بعيدتين عن الفوضى ودعس الأولاد. كانت تقفلهما وتضع أولادها في الممشى الصغير الذي بينهما والذي يؤدي إلى الحمام الفرنجي. لكن، حين تكون في المطبخ أو على الشرفة الكبيرة، يفتح أولادها باب الممشى المؤدي للصالون. يدخلون إلى الصالون وينتشرون فيه، خصوصاً في الفسحات الضيقة خلف الكنبايات.

أمي ترتب البيت مئة مرة في اليوم. تقول ان كل من يأتي من الخارج لا يصل إلا الى غرفنا المفتوحة. أولاد عمتي أيضاً كانوا يعيثون فساداً في غرفتنا الملاصقة للصالون حين تكون أمي في الغرفة الأخرى، القريبة من المطبخ.

عمتي أقفلت على غرفتيها. حتى كنباياتها في الصالون كانت

أقل تعرضاً للاستعمال من كنباياتنا. أما عمي العازب، شريك أبي في الشغل، فكان يكتفي بأن يطلب من عمّتي خدمات طفيفة أما سريره وغسيله وسائر أغراضه فكانت تهتمّ بها أمي، المنهمكة المشغولة والتي لا تجد وقتاً للكلام.

عمتي وأمي ما كانتا تتوقفان عن التفكير في تغيير وضع كل من العائلتين في البيت. أمي تنتظر اللحظة التي يتزوج فيها عمي وينتقل الى بيت آخر. وعمتي كانت تنتظر، خصوصاً بعد أن أصبح إيجار البيت محتملاً، أن ينتقل عمي وننتقل نحن معه.

ومرة قالت لأمي، إثر شجار بينهما، انها أتت قبلنا إلى البناية. لكن البيت كان يمشي باتجاه ان يكون بيتين اثنين، إلى الأبد: في المطبخ خزانتان وبرادان وفرنا غاز. في الصالون أثاثان، وغرف النوم مستقلة. أما بالنسبة الى الحمامين فقد تفاهمتا على تقويم ينظّم الغسيل والاستعمال وتناوب الأولاد على الاغتسال.

أمي كانت كثيراً ما تحنّ الى أيام وسيلة وأمّ حبيب. تقول إننا كنا عائلة واحدة والبيت بيتاً واحداً، حتى أن أحداً لم يكن يعرف في أي غرفة ينام. أبو حبيب يهتدي الى مكان نومه من فرشته. مرة أتى تعباناً فخلع ثيابه ودخل تحت اللحاف حيث كانت عمتي التي لم تكتشف الأمر إلا بعد أن وضعت يدها على صدره. تصف أمي كيف هرول أبو حبيب من الفراش مذعوراً، وكيف رفض ليلتها أن ينام إلا على الشرفة.

كنا يومها كأننا ما نزال في الضيعة، تقول. أبو حبيب لا يكفّ عن المزاح، وزوجته طيبة القلب وتجاريه في مزاحه. أما اليوم فلا أحد متحمّل أحداً. تقول عن عمتي إنها تحب أن تفعل مثل سكان البناية المسيحيين والأرمن والأجانب، وهي تستحي أن يدخل أحد منهم الى بيتنا.

في البناية التي في منطقة النهر كان صاحب الملك يجمع المستأجرين كل ليلة على سطح البناية الذي ملأه بأصص الزريعة والطراريح والمساند. كان السطح مضاء بلمبات كثيرة معلّقة على شريط يمتدّ من مدخله الخشبي حتى حافته العالية. أبو موسى الخطيب صاحب الملك يرتدي قفطانه الطويل الأبيض ولا يفارقه نبريش النارجيلة المزيّن بحبات خرز صغيرة. كان كريماً، ويتحدث عن مواقف وبطولات حدث آخرها منذ قرون عديدة.

تدور القهوة على الجالسين أو المستلقين على الأرض. إنه ليل البناية التي يطلع نهارها باكراً على الساكنين. كل أقربائي كانوا يشغلون الشقتين المتقابلتين اللتين في الطابق الأول. كانوا كثيرين إلى حدّ أنه لو رغب أحد بعدّهم لعجز عن ذلك وغلط مرات. الغرف كانت واسعة لأنها خالية من الأثاث، لكن الحركة لم تكن تنقطع بين الغرف الكثيرة والمطبخين والحمامين ومدخل الطابق الذي يفصل بين الشقتين. كانوا مسرورين مبتهجين كأنهم في رحلة، أو كأنهم في سكن مؤقت يعود بعده كلٌ إلى بيته. كانوا مبتهجين، حتى أن أحداً لم يفكر ان يختلي بنفسه حين يكون ذلك ممكناً. الأقرباء الذين خرجوا من الضيعة حسبوا أنهم أتوا في رحلة إلى بيروت.

البناية كانت على الشارع الذي يكتظ طيلة النهار بالعمال اللابسين قفاطين سميكة وعلى رؤوسهم كوفيات خاكية أو سوداء. يعبر العمال الشارع أو يزدحمون فيه. يتجمعون حلقات تفرقها بين الحين والحين قوافل الأبقار والأغنام التي يؤتى بها إلى المسلخ الذي كان بعد المنعطف القريب من البناية. تتصاعد رائحة اللحم المشوي من المطعم الذي في البناية المواجهة. كان يزدحم برواده ويضيق بهم مما جعلهم يضعون طاولات على الرصيف العالي، الذي يفصل المطعم عن الطريق.

في البناية المواجهة أيضاً فرن يبقى مضاء وهديره يتواصل طوال الليل. كان الزبائن يأتونه من البيوت التنكية المزدحمة التي في أول منطقة النهر.

تعبر قافلة الأبقار الطريق الموحلة. تلقي روثها وبولها على طول الشارع وعرضه وتترك رائحتها تصل حتى إلى سطوح البنايات. مدخل بنايتنا كان كبيراً جداً، كأنه ساحة في فراغ وليس بين جدران. كان على الداخلين أن يعبروا سكة طويلة حتى يصلوا إلى الدرج، سكة طويلة ضيقة، إذ كانت تحتل أكثر مساحة المدخل أكياس خيشية كبيرة، مملوءة تبناً، اشتراها أبو موسى الخطيب لكي يبيعها لتجار الأبقار في المسلخ.

هذه البناية لم تعد صالحة للسكن. على السطح الفسيح كان خشب الغرفة المنفردة بالياً ومتشققاً، والحديقة الكبيرة تبدو من ذلك الارتفاع أبعد بكثير. كان السطح يعلو عن بيتنا أكثر من طابق واحد. أرض السطح إسمنتية لكن ثمت عليها بقع صدئة كانت تنتشر على الأرض وحيطان الغرفة وسور السطح الإسمنتي في دوائر صغيرة متقاربة الاتساع. ساكنو الطوابق الدنيا لم يصعدوا إلى السطح منذ مدة طويلة، وكذلك ماتيلد وجارتها في الطابق الثالث. ومدام لور كانت تجفل من الباب الحديدي الكبير الذي يفصل بين السطح والطابق الخامس. كان الباب الحديدي مقفلاً، وسكان البناية باتوا لا يكترثون بالأنتينات التي تساقطت قضبانها أو تخلّعت القساطل التي تحملها.

مدام جاديجيان وحدها عرفت أن عليها أن تحزم حقائبها وتجمع أغراضها وتغادر. لم يكن أحد يدري لماذا اتخذت قرارها بذلك. لم يصدّقوا أن زوجها بات يتعب من صعود الطوابق الخمسة، إذ كان نحيلاً وخفيفاً ويعبر مسرعاً بين الأبواب. كذلك

لم تختلف مدام جاديجيان مع صاحب الملك أو مع أحد من الساكنين. لم يكن أحد يعرف. . . خرجت من البناية ومعها زوجها وابنتاها، ولم ينتظروا حتى أن يلقوا على الجيران تحيات الوداع.

بيتهم، وهو فارغ، كأنه بيت آخر. بدا الطلاء الذي لغرفتيّ النوم بالياً بسبب الماء الذي يتسرب إلى الحيطان من خزان المياه الذي في الوسط. والبابان المؤديان إلى الشرفتين الصغيرتين كانا مهترئين من الأسفل. وفي المطبخ، كان الورق اللاصق الذي غطت به مدام جاديجيان الخزائن الصغيرة والرف الرخامي باهتاً عتيقاً. مدام جاديجيان قررت أن تغادر البناية منذ وقت طويل، من قبل أن تبادر مدام لور إلى الإصلاحات التي أجرتها على بيتها، والتي من ضمنها بلّطت أرض الشرفة الإسمنتي.

مدام جاديجيان فاجأت جميع الساكنين. كانت عائلتها كأنها العائلة الوحيدة التي تترك بيتها وتنتقل الى بيت آخر. وبعدما تحركت سيارة الشحن الكبيرة وهي تحمل الدفعة الأخيرة من الأثاث، راح الجيران يتفحصون الدرج وحديد الشرفات وبعض المواضع من مدخل البناية. رحيل بيت جاديجيان جعل الساكنين يدركون ان بنايتهم باتت قديمة. مدام لور، في أحاديثها اللاحقة عن البيوت، جعلت تذكر أولاً إن كانت البنايات جديدة أم قديمة. نبيهة الشيباني راحت تتحدث عن ميزات البنايات القديمة، عن الضوء الذي يدخل الى الغرف وعن الاتساع وعلو السقف، لكنها، ودون أن تنتبه، تقول ان البناية المجاورة لبنايتنا أنظف لأنها أحدث عهداً.

بيت الكيلاني لم ينتبهوا إلى المواضع التي تدلّ على قدم البناية. ربما عرفوا أنهم ما عادوا في بناية جديدة غير أنهم لم يغيّروا شيئاً من عاداتهم. ظل المنجّد يأتي إلى بيتهم كل مدة كما

تعوّد. وبقيت أصص الزريعة من النوع الذي يتطاول منتشرة على طول زوايا الشرفة الخلفية.

صعد سليمان بائع اللبن مع عائلته إلى بيت جاديجيان الخالي. كان على الدرج في المقدمة وبعده إبناه اللذان لا يقلاّن سمنة عنه، وكانت الأمّ في المؤخرة. سليمان ألقى تحيّاته على من صادفه على الدرج، وكذلك فعل ابناه وزوجته اللاهثة. ماتيلد بقيت على حالها حين اقتربت منها المرأة بما يوحي بوضع الجيرة الجديد. بقيت ماتيلد ممسكة حلقة الباب المعدنية كأنها تريد أن تدخل الى البيت وشيء ما يؤخّرها عن ذلك.

لحقت المرأة بزوجها وولديها الذين سبقوها على الدرج. دخل سليمان باب البيت الخالي. دخل بعده ابناه اللذان يشبهانه. دخلت المرأة. الابن الأكبر المرتدي بدلة رمادية وربطة عنق زرقاء ألقى التحية على عمتي من الشرفة الخلفية. كان مهذباً، لكن عمتي ترحمت على أيام زوج مدام جاديجيان الذي لم يكن يخرج إلى الشرفة كأنه يفاجىء أحداً. كان يعرف الأصول، وحين يخرج الى الشرفة، يُطرق وينظر إلى شيء قرب قدميه ولا يغيّر وقوفه إلا حين تبادر عمتي إلى إلقاء التحية فيرفع رأسه مبتسماً خجولاً.

قالت نبيهة الشيباني إن سليمان كان يعرف أن مدام جاديجيان ستغادر المنزل، لذلك راح في الفترة الأخيرة يكثر من التحديق بنوافذ البيت وشرفاته. كأنه ينتظر اللحظة المناسبة ليذهب إلى صاحب الملك. وربما كان قد اتفق معه قبل أن تحزم مدام جاديجيان أمرها نهائياً.

نجح سليمان في أن يقنع صاحب الملك بالإيجار القليل الذي دفعه. ذكّره بدرج البناية المنهك، وقال له بأن أصحاب العمارات باتوا يبنون المصاعد قبل الشقق في هذه الأيام.

في اليوم التالي نزل سليمان من سيارته القديمة التي كان يبالغ

في تلميعها. وقف أمام بابها الذي تركه مشرّعاً، وأخذ ينظر الى المنعطف الذي خلّفه وراءه. بدت الشاحنة كأنها تحمل فوق طاقتها بكثير. بدأ الحمالون ينزلون الأغراض الكثيرة. قالت مدام لور فيما هي تسمع جلبة الحمالين وطرطقة الأغراض، ان سليمان سيخصص غرفة لأوعية الحليب، أما نبيهة الشيباني فقالت لعمتي انها ظلت منتظرة حتى تسمع صوت البقرة التي لا بد وأن تكون بين الأثاث.

عمتي التي راحت تشارك في التعليقات التي يطلقها سكان البناية حول سليمان وعائلته روت لهم كيف أنه لا يزرّر بنطلونه إلا على الشرفة، وكيف يجهد حتى تتمكن يداه القصيرتان من بلوغ عقدة الزنار. أمي لم تكن تستبعد أن تتحدث عمتي أمامهم عن عاداتنا في البيت. كانت تقول لأبي أن يكلمها بصوت منخفض لكي لا تسمعه عمتي وتخبر الجيران بما قاله.

كان سكان البناية أكثر تحفزاً للكلام حين صعد أقرباؤنا إلى البناية لأول مرة. تقدّم جدّي القافلة الطويلة على الدرج. كان يرتدي قميصه ذا القبة المستديرة ووراءه رجال ونساء وأولاد يبلغ صفّهم على الدرج طابقاً كاملاً. لم يكن يدري إن كان عليه أن يلقي التحيات على النسوة اللواتي رحن ينظرن إليه من وراء الأبواب المشقوقة. كان يصعد إلى الطابق الخامس من دون أن يتردّد أو يبطئ عند الأبواب أو مناور الدرج. لم يكن يتكلّم أو ينظر خلفه. كان يصعد دون أن يفعل شيئاً آخر، كأنه، والقافلة التي تتبعه، يعبرون من البناية إلى مكان آخر، أو كأنهم سينعطفون فور وصولهم إلى الأعلى ويقطعون الدرج نزولاً إلى أوله.

حسب جدّي أنه، ليقاوم وجه المرأة الفرنسية الشقراء الذي يطل عليه من خلف الباب، يجب عليه أن يتمسّك بالصمت

وتقطيب الجبين. جدّي صعد الدرج دفعة واحدة ولم يلتفت إلى الوجوه المحدقة من خلف الدرف المشقوقة. كان يراها بطرف عينه بينما ظهره محنيّ قليلاً وكفّاه الكبيرتان تتدليان إلى ما فوق ركبتيه بقليل. أبو حبيب وزوج عمّتي وسائر القافلة كانوا كأنهم ما زالوا في رحلة. لقد أسلموا أمرهم إلى جدّي، كبير العائلة، الذي راح يعوّض بصمته وتقطيبه عن خفّتهم واستعدادهم للمزاح على الدرج.

دخل جدّي باب البيت الذي في الطابق الأخير، وتبعه الآخرون، بينما كان الساكنون يبعدون وجوههم عن الأبواب ويستديرون إلى داخل البيوت. دخل جدّي إلى الردهة الكبيرة الفارغة. توزّع الرجال والنساء في الغرف. وركض الأولاد إلى الشرفات. نادى جدّي عمّتي فأتت. أشار إلى منتصف الصالون وقال لها: هنا أريد أن أنام.

من منطقة النهر مباشرة إلى هذه البناية. هذا انتقال لا يجازف به إلا جدّي المولع بالغرف الواسعة والذي لم يكن ينتبه كثيراً للفروقات بين المناطق. جدّي الذي أسند رأسه للحائط متفكّراً قبل النوم لم يكن يعرف أنه أثار بلبلة في البناية. راحت النسوة يطرقن أبواب بعضهن ويتكلّمن على عجل كأن ما رأينه على الدرج خطأ يمكن تصحيحه. كان مطرقاً يفكّر، حزيناً كيف أن والدي في بيت وهو في بيت آخر.

العائلة الفرنسية التي تسكن في الطابق الرابع كانت أقل استهجاناً من الساكنين الآخرين. ابتسمت المرأة الفرنسية لعمّتي التي كانت تنشر الغسيل على شرفة المطبخ. ردّت عمّتي بابتسامة أخرى وهرعت إلى حيث أم حبيب والآخرين. دار في الداخل لغط وكلام لم يتوقّفا حتى ابتسمت المرأة الفرنسية لأمّ حبيب هذه المرة.

من يومها راح كل من في البيت من النساء والرجال والأولاد يطلقون ابتسامات عريضة كلّما ظهر على الشرفة في الأسفل أحد من أبناء العائلة الفرنسية. في الصيف كان الفرنسيون يرسلون مكعبات الثلج إلى عمّتي لتضعها في إبريق الماء بينما هم يسرّون كثيراً بالخبز المرقوق والبيض البلدي الذي كانت ترسله جدّتي من الضيعة.

لم تطل إقامة العائلة الفرنسية في البناية. لقد أتوا لمدّة محدودة وكانوا يعرفون ذلك. أثاث بيتهم كان مؤقتاً ولم يضعوا على شرفة المطبخ الكبيرة زريعة واحدة. وحين غادروا البناية لم يأخذوا إلا ثيابهم بينما البرّاد وأغراض البيت الأخرى فقد أبقيت في البيت بالاتّفاق مع صاحب الملك. المرأة الفرنسية أخذت كتباً كثيرة معها، وتركت المجلاّت ذات الأغلفة الملوّنة مكوّمة أمام الباب.

منذ أن انتسب عمّي إلى نادي الملاكمة لم يعد يُشاهد إلا طالعاً نازلاً على الدرج. كان يهبط الدرج مسرعاً ويعلي يده قليلاً فيما هو ينعطف بين سلّمين. في يده الأخرى كانت محفظته الرياضية السوداء المصنوعة من الجلد القاسي.

منذ انتسابه إلى النادي والملاكمة شغله الشاغل. يأتي من الفرن ويخلع الثياب المبقّعة بآثار الطحين. يغسل وجهه وأذنيه ويضع ماء على شعره، ثم يذهب إلى الخزانة حيث سترته الكحلية ذات الأزرار المعدنية. يغلق الزرّ الأوسط. ينظر إلى شكله في مرآة الخزانة الكبيرة. يصفن في المرآة قليلاً، كأن مصوّراً طلب منه أن يحافظ على وضعه الثابت، وفجأة، يفرج ما بين يديه، كأنه يهيّئهما لإمساك مسدّسين متدليين من جنبيه، ثم يرفعهما إلى مستوى وجهه، ويبدأ الملاكمة أمام المرآة.

يهدأ قليلاً ويبدأ يسوّي سترته، ثم، فجأة، تتدافع لكماته المتلاحقة من جديد، كأن شخصاً أثاره أو لكمه على حين غرة.

كان يطلب من أخي أن يرفع يديه الاثنتين. فيقف أخي متردّداً

محاذراً بينما اللكمات المتدافعة تنهال على يديه. عمّي لم يكن يهدأ. وكان العرق يتصبّب منه كلّما أطلّ على الغرفة حيث الساهرين.

أبي حذّره من المبالغة في التمرين خارج النادي، وخصوصاً في الأماكن التي يرتادها الغرباء. كان يصغي إلى ما يقول أبي لكن سرعان ما ينساه. يحمل محفظته القاسية الجلد، يهبط على الدرج مسرعاً، وفي مكان ما بين الطوابق يتوقّف، يضع محفظته على الأرض، وتبدأ لكماته تتتالى.

كان واقفاً أمام باب الفرن حين مرّ الديركي. نظر إلى عمّي الفارع الطول فأعجبه وعرض عليه أن يأخذه إلى النادي. في الأيام الأولى لم يرق له التمرين. كان يتعب، إذ ان الوقت الذي يقضيه في النادي كان على حساب نومه. لم يرق له الوضع الجديد فأخذ يتردّد في الذهاب. لكنه بعد ذلك انتظم فيه. اشترى أيضاً سترته الكحلية التي على الجهة الشمالية منها، على جيبة الصدر، شعار مطرّز بألوان متعدّدة.

طوله يساعده كثيراً، قال الديركي. ليس من أحد بين ملاكمي وزنه يستطيع أن يسدد اللكمات إلى وجهه. كان هذا صحيحاً، إذ في الصور التي كان يأتي بها من النادي، كان خصمه قصيراً، منشغلاً بالنظر إلى بطن عمّي التي كانت في مستوى رأسه أو أقلّ قليلاً. رأس عمّي كان عالياً، وعيناه مفتوحتان بطريقة لا توحي أنه يلاكم. كان ينظر جانبياً إلى المصوّر لهذا بدا أنفه الطويل بارزاً من وجهه النحيل.

قال الديركي إن همّ عمّي يجب أن ينصبّ على بطنه. عليه أن يحمي بطنه. انتبه أبي إلى الآلام التي يمكن أن تسبّبها لكمة قوية على المعدة، فوضع يده على الموضع الذي تنبعث منه آلام قرحته المزمنة.

وبينما كانت عمّتي تنتظره ذات يوم وقد تأخر في الليل، سمعت صوت سيارة تتوقف عند مدخل البناية. ركضت إلى الباب وراحت تنظر من الفتحة التي بين الأدراج. كان عمّي ما زال يرتدي سرواله القصير اللماع وحذاءه العالي الذي يلبسه في التمرين، وعلى كتفيه منشفته وقد امتلأت دماً. كان متعباً ومنهكاً على الدرج وبجانبه الديركي وملاكم آخر من النادي. نالوا منه هذه المرّة، قال الديركي بينما كان عمّي واضعاً رأسه تحت الحنفية، والماء يسيل من وجهه إلى المغسلة، غزيراً وممزوجاً بالدم.

لم يكن يجيب حين يسأله أبي عن فائدة الملاكمة. كان يسكت ويحرّك رأسه يميناً وشمالاً تبرّماً من أسئلة أبي المتلاحقة. لكن، بعد أن راح يشترك في مباريات داخل النادي، وبعد جرح رأسه البليغ، لم يعد يقوم بتمارينه أمام المرآة، حتى ولا في البيت. صار ينزل على الدرج هادئاً ومن دون محفظته الجلدية التي يتركها في النادي ولا يحضرها إلا من أجل أن يغسل الثياب التي في داخلها.

حين هزم عمّي البطل الإيراني كان أبي جالساً في الصفوف الأولى. مصابيح كهربائية عديدة تدلّت من السقف العالي، ورائحة القاعة الفسيحة تنضح بالعرق والجالسون يتبادلون كلمات خاصة بالملاكمة سمع أبي بعضاً منها من عمّي. قُرع الجرس فاندفع الملاكمان الى وسط الحلبة. بدأ توتّر أبي يتحوّل إلى ألم في معدته. كان البطل الإيراني أسمر وكبير الرأس وأخذ يوجه لكمات متلاحقة إلى صدر عمّي وبطنه. راح عمّي يبتعد صوب الحبال ويقفز قفزات متتابعة فيما هو يحرّك يديه ورأسه. كان يتراجع ويتقدّم دون أن يلاكم خصمه. كان يقوم باستعراضات على الحلبة. الإيراني تخلّى عن الوضع الجدّي الذي بدأ به المباراة، وراح يمشي ويتحرّك على مهله كأنه منشغل في أشياء

بجوار الحلبة.

لا أحد يدري كيف انتصر عمي على البطل الإيراني. لبس معطفه الرياضي فوق سرواله اللماع القصير وحمل المنشفة وأتى إلى البيت محاطاً بزوج عمّتي وأبي الفخور بانتصاره. كان كمارد حين أطلّ من الباب. استراح قليلاً على الكرسي ثم ذهب إلى المغسلة التي انشقت من وسطها حين أسند رجله إليها.

حين عاد منتصراً من اليونان رفض جدّي إلا أن يقيم له احتفالاً في الضيعة. اجتمع أهل الضيعة في ساحة البيت وعلى الشرفات القريبة وفوق السطوح. راح الشباب يطلقون الأسهم النارية، والفرقة الزجلية تحلّقت حول الطاولة التي في وسط ساحة البيت. كان على الطاولة كأس الانتصار الفضي، وخيارة عملاقة الحجم ممدّدة على شرشف الطاولة الأبيض. قال عمي انها من الخيارات الصغيرة في اليونان.

أهل الضيعة كانت عيونهم على الخيارة وتستغرقهم الأحاديث الجانبية عن بذور الخيار والزراعة بالوسائل الحديثة وعن أن كل الثمار في اليونان هائلة الحجم. قال أحدهم انه رأى موزة يبلغ طولها ضعفي طول الخيارة التي على الطاولة.

حين صعد أقربائي على الدرج وحدها ماتيلد بين النسوة لم يدفعها فضولها إلى إطالة النظر في القادمين الجدد. سمعت جلبة وخبط أقدام كثيرة. شقت ضلفة الباب الزجاجية ... ثم أقفلتها، وذهبت لإتمام عمل كانت قد شرعت به ...

حين بدأن يطرقن أبواب بعضهن، بعد دقائق من دخول جدّي باب البيت، لم تكن ماتيلد بينهن. لم يشاهد أحد ماتيلد، إلا في أول المساء، تمشي المسافة القليلة التي تفصلها عن باب الشقة الثانية في طابقها نفسه.

ماتيلد تعوّدت أن تزور مدام خيّاط. تخرج من بابها إلى باب جارتها، قاطعة أربع خطوات في الذهاب ومثلها في الإياب. لم يرق لها إلا مدام خيّاط، الطويلة، الصامتة مثلها، والتي، مثلها أيضاً، تحسب التحيات على جيرانها في البناية.

ماتيلد ومدام خيّاط أبدتا أقلّ قدر من المرونة تجاه الوافدين الجدد إلى البناية، وراحتا، نتيجة لموقف الجيران المتسامح، تقفلان الأبواب ولا تزوران أحداً. مدام خيّاط لم يعد أحد يراها، وبات

الجميع يخلطون بين أوقات إقامتها في الجبل وإقامتها في البناية.

ماتيلد لا تُرى إلا في المسافة القليلة الفاصلة بين بيتها وبيت جارتها. تردّ السلام على من يبادرها به، لكن لا تبتسم. دلّت ملامح وجهها، منذ أن تكلمت عمتي معها للمرة الأولى، أنها ليست على استعداد لإبداء المجاملات.

أكملت عمتي صعودها، تواً إلى البيت، دون أن تقرع جرس نبيهة الشيباني كما تعوّدت بعد رجوعها من زياراتها خارج البناية.

ماتيلد لا تلقي بالاً إلى الأولاد الطالعين النازلين على الدرج، كأنها لا تراهم ولا تسمعهم. تضع المفتاح في ثقبه وتديره وهي تمسح قدميها قبل أن تلج الباب. كانت في الخمسين، وذات عينين ملوّنتين قاسيتين يزيد في قسوتهما بعض انتفاخ في الجلد الرقيق الذي يحيطهما.

لم تكن تتكلم. وحين سمعها الأولاد تقول شيئاً لجارتها لاحظوا أن صوتها يفتقد الرقّة التي في أصوات النساء. كأنه صوت رجل أفاق لتوّه من النوم.

ماتيلد أكثر شبهاً برجال البناية. هي مثلهم في التحيات وفي الظهور القليل. في فترات ماضية كانت الجارات يقلن إنها تجلس على طاولة في المساء وتلعب القمار مع رجال يأتون من بيوت بعيدة. قلن أيضاً إنها لا تنام إلا في ساعات الصباح الأولى، وان الرجل الذي يقف قبالة سيارته الصغيرة يعرفها من قبل أن يموت زوجها.

كان يبدو متصابياً ببنطلونه المخمليّ وحذائه الكوتشوك وهو يقف على باب سيارته الغورديني. يمدّ يده من نافذتها المفتوحة ويطرق بوق سيارته طرقاً خفيفاً بينما هو ينظر إلى شرفة في الطابق حيث ماتيلد.

أمي تشمئزّ من وجهه الأحمر الطريّ الذي يبدو كأنه أُخرج

لتوّه من المقلى. كما تشمئزّ أيضاً من ماتيلد التي ترضى أن تخرج إلى الشرفة لملاقاته.

أمي لم تكن تشاهد ماتيلد إلا قليلاً، وحين شاهدتها للمرة الأولى رأت أن من واجبها أن تلقي عليها السلام. أطلقت كلمة وأكملت سيرها على الدرج دون أن تعرف إن كانت سمعت رداً أم لا.

لم تكن أمي تفهم كيف هي ماتيلد، وكذلك مدام خيّاط الطويلة الساكتة التي كأنها تسكن في بناية أخرى. لا تعرف كيف تحدّثهما، وهي راحت تنتقد عمتي التي تبذل جهداً من أجل أن لا تبدو لائقة أمامهما . كانت تقول ان عمتي تقلّد نبيهة الشيباني حين تحكي، وانها تُدخل على صوتها غنّة مضحكة حين تحدّث مدام لور عن الشرفة.

يعلو الصياح بين أمي وعمتي. تبدآن دفعة واحدة كأن كل واحدة منهما حفظت دورها وانتظرت لحظة التنفيذ. يتداخل الصياح أول الأمر ولا تسمع واحدة ما تقول الأخرى، لكن، بعد زوال الاندفاعة الأولى تتحوّل أمي إلى التشكي فتلعن الأولاد والحظ. تروح تتمنى الموت لنفسها بينما تظل عمتي تطلق كلماتها القاسية، حتى تنهمر الدموع من عينيّ أمي غزيرة حارة.

لم تكن أمي تحب البناية. لا تكون سعيدة هانئة إلا حين تنظر إلى رؤوس أشجار الكينا من نافذة الشرفة المفتوحة. تجلس وحدها لكن كأنها بين أخريات. كأنها تصغي إلى نسوة قاعدات قربها ويتكلّمن بصوت هامس. باتت وحيدة في البناية منذ رحلت وسيلة وأمّ حبيب. وحدها مع الأولاد، وأبي لا يأتي إلا في الليل، تعباً متهالكاً، ويأتيه النوم قبل أن تنتهي من تسخين طعامه. يغفو مسنداً رأسه وكتفيه إلى الحائط، بينما حذاؤه الطويل موضوع بترتيب إلى جانبه.

في بيت النهر لم تكن تهدأ الغرف. وسيلة تتعارك مع مصطفى جواد وتقلبه على الأرض. عمتي عليّة تبدأ زينتها من الظهر انتظاراً لإبن خالها البيروتي. يوسف يجهّز صدور النمورة في البيت قبل أن يرسلها إلى الفرن، يطبخها ويبيعها على بابه. وجدّي لا يأتي إلا قليلاً، وحين يدخل الغرفة تفرغ عمتي المساحة التي حولها من الأولاد. زردخان ومحمد سعيد، السهرة على السطح، وأبو موسى الخطيب يبدو أعلى من الرجال، ورائحة التبن تنبعث من مدخل البناية فتجعل الغرف حارة ساخنة.

تنزل أمي وزردخان وعمتي عليّة الدرجات الكبيرة. حين يصلن إلى مدخل البناية يقفن وراء الباب كي يسوّين ثيابهنّ للمرة الأخيرة. تعلي عمتي عليّة قدمها فوق عارضة الباب الخشبية وتضعها على الطريق. تخرج، تتبعانها، ويمشين خفرات باتجاه المبنى القرميدي الضخم الذي كأنه غرفة واحدة.

يحاذرن أن تسقُطَ أقدامهنّ في وحل الشارع القصديري اللزج، ويلتزمن في السير حافة الطريق، إذ، حين تمر البقرات وترفع واحدة ذيلها كي تروث أو تبول، يصبح وجودهن في الشارع محرجاً. يقدّمن الأغطية التي على رؤوسهن قليلاً، ويثبتن أعينهنّ في خط مستقيم إلى نقطة في القرميد الضخم، الذي يبقى أمامهن بعيداً برغم المسافة التي قطعنها باتجاهه.

يلتزمن حافة الطريق، إذ في فسحة الشارع العريضة تمرّ العربات أو يتحلق رجال بكوفيات وثياب خاكية. إنهم أول من قدم إلى المنطقة، والعائلات التي تسكن البيوت على طرفي الشارع كانت كأنها ما تزال منهمكة بترتيبات الوصول.

ينعطفن إلى اليسار قبل أن يصلن إلى المبنى القرميدي، إلى الشارع الهادئ، الذي لم تصله البنايات والبيوت التنكية وزحمة الآتين إلى المسلخ. يتقدّمن في الشارع الذي يصبح أكثر هدوءاً

كلما أوغلن فيه. يسمعن صوت الهواء في نقطة من الطريق، وعلى جانب الإسفلت ترى زردخان بقعة من حشيش أخضر وزهوراً صغيرة صفراء. يتفرقن ولا يعدن متحاذيات. كأن الشارع امتد أمامهن وكأنهن ذاهبات إلى أماكن متفرقة.

قبل أن يصلن إلى المستشفى الفرنسي ينعطفن قليلاً الى اليمين ويمشين على أرض غير معبّدة. يتمايلن، ولا تعود زردخان قادرة على الثبات فوق الطوب البيضاوي الأملس. تشمّ عمتي رائحة البحر، وتُرسل نظرة متأنية على صفحته الهادئة كالزيت. أمي يكفيها من نزهتها أن تقترب من الخط الفاصل بين الماء والحصى الصغيرة. يكفيها أن تشّم رائحة الماء الراكد الكثيف، وتحثّ رفيقتيها على التقدم صوبه. يتقدّمن، يتمايلن في محاولتهن تجنب الوقوع على الشاطئ الذي عليه بقايا أقمشة وإطارات مطاطية وعلب تنكية صدئة. يتراجعن صوب الطريق الإسمنتية. يقفن ثانية على الطريق دون أن يعرفن أين يقضين ما تبقى من وقت النزهة.

لا يمكن لأحد أن يتنبأ بنوع الأحاديث التي تجري بين ماتيلد ومدام خيّاط. تجلسان، واحدة على السرير وأخرى على كرسي التواليت الضيّقة. تصغي ماتيلد. يتدلّى الانتفاخ الذي حول عينيها فيما هي ترمي نظرة خاطفة إلى نفسها في المرآة.

تصغي وتتحدث قليلاً كأنها بوغتت بالوقت الذي تعداها، ثم تلقي كلمة وداع عابرة وتمشي إلى البيت.

حين تكون الزيارة لمدام خيّاط تنشغل ماتيلد بتخيّل تغييرات طفيفة تجريها على توزيع الأثاث والصور التي على الجدار. تجلسان متباعدتين على طرفي الكنباية الكبيرة. تقوم ماتيلد لتغلي قهوة. تمسك طرف الركوة بإصبعيها بينما تبقى النار خفيفة خافتة. فنجان مدام خيّاط على لوح الموبيليا الصغير الملتصق بالكنبة، ورغم زياراتهما المتبادلة فإنهما تبدآن عادة بالسؤال عن الأقرباء البعيدين.

ماتيلد تغلق الأبواب والنوافذ الخشبية. تقفل أيضاً الأبواب الداخلية ذات الواجهات الزجاجية وتشعل مصباحها الكهربائي.

هي ومدام خيّاط تجلسان في ضوء خفيف يجعلهما تحسبان أنهما تجلسان في العشيّة أول الليل. مدام خيّاط تترك الباب الخشبي مشرعاً في غرفة نومها، وحين تزورها ماتيلد وتجلس في كرسي التواليت الضيقة تسمع أصوات السيارات العابرة وصياح المتنزهين في الحديقة الكبيرة.

ماتيلد، حين تقعد في سريرها وسط الملاءات والأغطية لا تنتبه إلى أنها باتت وحدها في البيت. لذلك، لا تضع رجليها حرّتين على السرير. تبقيهما مستقيمتين متوازيتين ولا تفارق وجهها ملامحه القاسية.

لكنها وهي على سريرها تنسى البناية وساكنيها والمتنزّهين الذين يأتون إلى الحديقة من الشارع القريب المزدحم. أثاث الغرفة هو نفسه لم يتغير. الكومودينة ما زالت مكانها في الزاوية على يمين السرير، والمشجب الذي لصق الخزانة يتدلّى من ناحيته الأمامية روب البيت الزهري، بينما من الخلف بقي المعطف القديم الذي تركته معلّقاً منذ زمن.

ماتيلد في غرفتها المقفلة، بين أثاثها الذي لم يتغيّر، تحسب أنها ستنزل رشيقة عن السرير، تضع قدمها على الأرض، وتذهب خفيفة إلى الروب المعلق الذي تخرج به إلى الشرفة.

ما زالت الغرفة كما هي لم تتغيّر. لم تفعل ماتيلد شيئاً سوى إزاحة الغبار عن الخزانة والكومودينة وأطراف السرير. لا شيء تغيّر في الغرفة. بقيت الأشياء على ما كانت عليه، حتى طرف المجلة الذي يظهر من سطح الخزانة ما زال في موضعه لم يتغير.

لكن رغم ذلك ينتابها ذعر حين يقع نظرها على قطعة الأرض الخلفية التابعة للبناية. تراكمت على سطح بيت الناطور أخشاب ونفايات وثياب بالية. لم يعد الناطور يعتني بالزريعة أمام الباب. يبست النباتات الخضراء إذ راح يباعد بين أوقات سقايتها.

ينتاب ماتيلد ذعر مماثل حين ترى البناء العريض المجاور، ذلك الذي لا يفصله عن البناية إلا حائط حجري عال. هناك لا تفتح ساكنة الطابق العلوي إلا نافذة واحدة بينما تغلق النوافذ والأبواب الأخرى. تحسّ ماتيلد وحشة في الغرفة، وبرداً شديداً يختزنه عمود السرير النحاسي القريب من طرف النافذة.

مدام خيّاط رفيقة ماتيلد وحدها. يعرف الساكنون أنها لا تفعل شيئاً سوى فتح بابها وإغلاقه، وهي، حين تهم بالدخول إلى بيت جارتها، تفكر إن كان الوقت مناسباً لذلك. لا تصعد إلى الطابق الرابع حيث مدام لور ونبيهة الشيباني منشغلتان بتخيّل أوضاع جديدة لتوزيع الأثاث على الغرف. في شقّتي الطابق الرابع حركة وجلبة ومدام لور ونبيهة الشيباني تقضيان الوقت بالكلام من الشرفات المتقابلة. تفتح مدام خيّاط بيتها وتغلقه، تسكت أو تتكلم قليلاً وذلك بحسب ما يوحيه وجه ماتيلد.

وفي الخطوات الأربع التي تفصل بين بابي البيتين تقف مدام خيّاط بانتظار أن تفتح جارتها الباب. تمسك حلقة الباب المعدنية وتلتفت إلى الفرجة التي بين الطوابق إذا ما سمعت خبط أقدام على الدرج. أما ماتيلد فتعبر المساحة القليلة غير آبهة. تقف مستقيمة أمام الباب الآخر وتنظر إلى شق الباب الذي سينفتح بعد قليل وتطل منه مدام خيّاط المدثّرة بروبها الطويل الأسود.

لماتيلد أوقات لا تشرك بها جارتها. تعرف مدام خياط ذلك من طريقة قيام ماتيلد عن كرسي التواليت وذهابها مستعجلة الى الباب. تبقى مدام خيّاط وحدها على السرير تراقب منه الحديقة والمتنزهين. تقوم إلى المطبخ أو إلى الشرفة الخلفية. وبعد وقت تحسب أنه آن الأوان كي تصعد إلى بيت ابنتها في الجبل.

ماتيلد بقيت محافظة على هوايتها في الجلوس منفردة. تحسب جارتها أنه وقت للرجل صاحب الغورديني الذي يطلق زموره

وهو بمحاذاة الرصيف. ظلت تجلس منفردة حتى بعد أن راحت زياراته تتباعد. في المدة الأخيرة صار يطلق زموره مرة واحدة. ينتظر في السيارة، حتى تطل. يراها، فيرفع يده محيياً ويهز رأسه قليلاً ثم يدير محرك سيارته ويبتعد بها في سرعة خفيفة.

جدّي لم يمكث طويلاً في البيت. لم تكن إقامته طويلة حتى أنه لما غادر إلى الضيعة لم يقض وقتاً طويلاً في ترتيبات انتقاله. كانت عمّتي قد أعدّت له صرّة ثَيابه. حملها ونزل على الدرج. وحين شاهدته عن الشرفة وقد قطع شوطاً باتجاه السوق حيث السيارة التي ستقلّه، هرعت الى حيث كان ينام. أبعدت فرشته التي كانت مطويّة إلى غرفة أخرى، وقلعت من الحائط المسمارين اللذين كان يعلّق عليهما ثيابه.

كان يعرف منذ أن نزل من الضيعة أنه لن يمكث طويلاً في بيروت. حتى أنه، حين ودّع جدتي قبل نزوله، راح يوصيها بأشياء تفصيلية كأنه سيرجع بعد أيام قليلة.

أخّره الانتقال من بيت النهر والفرن الذي استغرق تشغيله وقتاً طويلاً. في غرفة الصالون بالبيت الجديد، كان يستيقظ قبيل الفجر. يقوم من فرشته دفعة واحدة كأنه كان يقظاً قلقاً ومنتظراً لحظة القيام. يرتدي ثيابه، ثم يقف على الباب حيث تنام عمتي مع زوجها. يوقظها بأن يناديها مرات، ثم، حين تستيقظ، يقول

لها إنه ذاهب وسيعود في الليل .

حين بدأ الشغل في الفرن صار لا يأتي إلى البيت إلا في ساعة متأخرة . كان يشتغل أكثر بكثير من أبي ومن عمي . أو انه كان يقوم بالشغل الذي يقومان به معاً . يملأ المعجن الكبير بالطحين والماء ويبدأ ينقل قبضتي كفيه الكبيرتين على ما سيصبح بعد قليل عجيناً قاسياً ينقله إلى الرف ، حيث الشغّيل الذي سيقسمه إلى كتل صغيرة .

كان يقضي أكثر نهاره أمام المعجن ، وبين الحين والحين ينظر من نافذة صغيرة أمامه إلى الزبائن الذين يبيعهم أبي . يتردد إلى بيت النار ويتشاور مع الشغيل الذي يبتعد عن الفتحة التي يخرج اللهب من جوانبها .

يرجع إلى البيت في الليل . تضع عمتي له أكلاً على الصينية الواسعة . تخصّه في الأكل وتهيّئ له مكاناً هادئاً حتى لا يشغله شاغل عن طعامه . يأخذ الإبريق الذي إلى جانبه ، ويشرب ماء كثيراً ويسند ظهره بعد ذلك إلى الحائط .

وسيلة وأمّ حبيب تحلفان أنه ، طيلة إقامته في البيت ، لم يخرج مرة واحدة إلى الشرفة التي يبدو منها مشهد الحديقة الكبيرة . كان في أيام الصيف القائظة التي سبقت رحيله إلى الضيعة يخرج إلى الشرفة الكبيرة الملاصقة للمطبخ فيأتيه الهواء بارداً . يبقى طويلاً على الكرسي ... قرب أصص الزريعة التي أرسلت جدتي شتلاتها من الضيعة .

تلك كانت فترة جلوسه الكثير على الشرفة . لم يشاهد أحداً من الجيران على صفّ الشرفات المتتابع إلى أسفل . وحين أخبرته عمتي كيف ابتسمت لها المرأة الفرنسية ضحك ورغب في أن يرى أحداً من الجيران الفرنسيين .

ابتسمت المرأة له أيضاً . قال بعد ذلك أن الفرنسيين أحسن من

أولاد العرب في البناية، وأوصى عمتي أن ترسل لهم شيئاً مما ترسله جدتي من الضيعة. قال أنهم يحبون أكلنا كثيراً.

كان العرق ينضح من جسمه حين دخلت المرأتان إلى الفرن. طلبتا خبزاً من أبي، وبينما كان منشغلاً بإحضاره راحتا تكثران التحديق بجدي من النافذة الصغيرة. كانت يداه تقلبان العجين، والعرق يجعل صدره العاري لامعاً. وكان يرفع العجنة الكبيرة بين يديه ويقلبها كأنها حمل خفيف، والمرأتان ظلتا تنظران إليه وتتهامسان حتى رجع أبي من الداخل.

قال جدّي إن عين المرأة أصابته. لأنه ما كاد ينتهي من وضع الماء فوق الطحين استعداداً للعجنة الثانية حتى أحس بالألم يسري في يده اليمنى. كان الألم قوياً لدرجة أنه كاد يقعده على الأرض. ذهب إلى البيت ولم تفارقه أوجاعه، وما نَفَعَ الزيت الغالي الذي راحت عمتي تمسّد به يده وكتفه وبعضاً من ظهره.

في الصباح أخذه أبي إلى المستشفى الفرنسي قرب بيتنا القديم في منطقة النهر. كان الذي عالجه طبيباً فرنسياً يرتدي نظارة رقيقة على عينيه. أبدى لطفاً زائداً وأخذ يضحك حين أخبره الترجمان إن جدي أصابته عين المرأة التي نظرت إليه من النافذة التي بين غرفة العجين ومكان أبي على الجارور حين رفع هو العجين وتكلمت هي مع رفيقتها وعرف أنها ستُصيبه واستعاذ باللّه.

استمر الألم في يده لم ينقطع. أرشده ناس من ضيعتنا إلى مستشفى مجاور كبير. كان قرب البيت ولم يكن يعرفه. ذهب إلى المستشفى، وهناك قرّر الطبيب أن يجري له العملية في منتصف يده، عند المفصل.

لم يطق أن يبقى طويلاً بين الممرضات والغرف التي تنبعث منها رائحة الدواء. ألحّ على الطبيب أن يخرجه وحين رأى أن لا جدوى من ذلك راح يقنع الممرضات. قال لأبي أن يأخذه فوراً

إلى البيت. كان الطقس حاراً في الصالون حيث ينام. ذهب إلى الشرفة الكبيرة، وفيما كان يحدق بأصص الزريعة فكر في أن يغادر إلى الضيعة، إلى غير رجعة.

زوج عمتي أعجبه الشغل على السيارة العمومية. بل انه أحبّ السيارة التي كان يوقفها بعناية في ظل سور الحديقة الكبير. وقبل أن يدخل البناية، كان يلقي نظرة يعتقد أنها الأخيرة على مقدمة السيارة وأبوابها. لكن، حين يصعد الدرج، يكرر النظر إليها من النوافذ التي بين الطوابق حتى يصل إلى البيت. كان شعره مروّساً من أمام وحذاؤه ذو اللونين نظيفاً لامعاً وشارباه كانا دقيقين مستقيمين.

عمتي كانت ترتاب من الغنّة العاطفية التي يدخلها على صوته ومن تردّده على المصورين الذين يظهرونه شبيهاً بالممثلين السينمائيين. في الصور، كانت عيناه شفّافتين نديّتين وبشرة وجهه رقيقة ومحاطة بشيء يشبه الغيم الخفيف.

كل من في البيت لاحظ كيف راح يبدّل لهجته. قال أبي انه يتكلم مثل شباب المصيطبة الذين كان يكثر من التردّد عليهم. نبيهة الشيباني أبدت إعجابها به وقالت إنه أجمل شاب في البناية، وكانت، بين الحين والحين، تحذّر عمتي من عواقب عمله في

الليل، إذ منْ يستأجر السيارات في تلك الساعة غير الخارجات من البارات إلى بيوتهن.

كان يحرص على أن تبقى محرمته مكويّة، ويكثر من شراء الصابون ومعاجين الحلاقة والعطور. يضعها في درج خزانة وينقلها واحدة واحدة إلى المرآة التي فوق مغسلة الحمام الفرنجي.

هو وعمي يقفان على الشرفة الصغيرة المطلة على الحديقة. يضع قدمه على حديدة من الدرابزين المتشابك ويبدأ الكلام محرّكاً يده كأنه يعلّم درساً. يكوّر أصابع يده ومبطئاً يحرّكها علواً وانخفاضاً كأنه يخفف من حنق عمي واندفاعاته المتهورة. عمي يصغي وهو يقف مستقيماً طويلاً، وكلما عبر أحد من الغرفة الملاصقة أو أطل آخر برأسه عن الشرفة المقابلة كانا يسكتان، وينظران سوياً إلى الطريق.

أحياناً كانا يخليان الشرفة ويتجهان إلى الباب متكلمين ومسرعين، يهبطان الدرج بينما الكلام بينهما مستمرّ لا ينقطع. يصعدان السيارة العمومية اللامعة، ويذهبان، كأنهما في مهمة، ويرجعان كأنهما قد غيّرا رأيهما قبل قليل من إنجازها.

عمتي المنشغلة بزياراتها إلى بيت الشيباني ومدام لور لم تكن تعير أهمية لحال زوجها. من صغره يحب الثياب، كانت تقول. لكن، رغم ذلك، كانت توجّه له انتقادات لاذعة حين يطيل الوقوف أمام المرآة، أو حين يُعلي قبّة قميصه من الخلف حتى تغطي جزءاً من رقبته.

حين صار يتكرّر تأخّره لم تكن تفعل شيئاً سوى انتظاره. تجلس على فراشها في العتمة، ساعات، دون أن تبدي حركة. وحين يصل تسأله عن الساعة وهي ترفع اللحاف إلى رأسها وتنطوي في الفراش. كانت تكتفي بهذا القدر من الاحتجاج، لكنه لا يسكت. رغم ذلك يخلع بنطلونه وقميصه ويذهب لينام

في غرفتهم الثانية.

حين يمضي وقت على ذهابه إلى الغرفة الثانية تقوم من فراشها وتبدأ بتفتيش جيوبه علها تجد دليلاً على الشكوك التي باتت مؤكدة. تعدّ ما في جيبه من نقود، تشم رائحة الأوراق وتحدق في أكمام القميص.

نبيهة الشيباني أشارت عليها بأن تغيّر ثيابها وتتهيّأ له حين يكون في البيت. عملت بنصيحتها وراحت، في بعض ساعات الظهر، ترسل الأولاد إلى الحديقة وتغلق ما أمكن من الأبواب. كان يشرب قهوته وهو ساهم في أشجار الحديقة العالية. لم ينظر إليها. ربما لم ترق له عملية التجميل السريعة التي أجرتها نبيهة الشيباني أو ربما كان يخاف أن ينفضح شيء في عينيه إذا ما ارتبك فجأة أثناء النظر أو الكلام.

عمتي لم تقتنع كثيراً بأسلوب نبيهة الشيباني ولم تحقّق فيه أي تقدم، وفي كل مرة كان صبرها ينفد وتهمّ بأن تقوم بعمل غاضب تتراجع عنه في اللحظة الأخيرة.

حين رأت آثار أحمر الشفاه على محرمته لم تستطع أن تنتظر طلوع الصباح. نهرته، فتظاهر أنه نائم وأخذ يغمغم ويتشكّى بكلمات ممطوطة. زادت من نهره ومن تحريك رأسه. قام. وفي ثوان، بدأ صراخ وشجار أيقظا كل من في البيت. أبي كان نائماً في الفرن. أمي وقفت وراء الباب ولم تدخل إلى الغرفة، أما عمي فكان واقفاً بينهما واضعاً يده على فم عمتي وممسكاً بالأخرى زوجها الذي راح يندفع نحوها ويتراجع.

في الصباح فكرت أن تطلع إلى الضيعة كي تخبر جدي، وأيضاً طلبت من أبي وعمي أخويها أن يضعا حداً لتصرفاته. قررت أخيراً أن تمنعه من المجيء إلى البيت ومن رؤية الأولاد. لم يجد القرار متعسفاً. حمل بعض أغراضه التي جمّعها بسرعة،

وهبط مسرعاً على الدرج دون أن يلقي نظرة على أولاده الذين التفوا حول أمهم.

غاب ولم يرجع بعد الظهر، وكذلك لم يرجع في الليل. لم يأت في اليوم الثاني ولا في الأيام اللاحقة. في مرتين أو ثلاث كانَ يوقف سيارته خلف مفرق الحديقة. يصعد عمي إلى جانبه، ويمكثان وقتاً جالسين يتحادثان. وقبل أن يفترقا يدير محرك سيارته ويدور بها دورتين حول الحديقة الكبيرة. وعلى بعد قليل من البناية ينزل عمي ويصعد إلى البيت، تواً إلى الشرفة الصغيرة محاذراً أن ينظر إلى أحد أو يتكلم معه أحد.

في غيابه أبدت عمتي عناية زائدة بالأولاد. لم تنزل إلى بيت نبيهة الشيباني إلا في مرات قليلة. لم تسأل عن زوجها، أو هكذا بدت، وحين أتى كي يأخذ بعضاً من أغراضه لم تكترث لقدومه، بل راحت تنشغل بترتيب السرير في الغرفة الأخرى، على مسافة غير بعيدة منه.

كان أبي هو الذي أتي به بعد فترة على غيابه. بدا نحيلاً ورأسه كبيراً كأنه نزل من الضيعة لتوه. وضع المحفظة التي اشتراها في غيبته على الكنباية وجلس وحده في الصالون. رفضت عمّتي أن تستقبله في البداية، لكن بعد وساطات من أبي رضيت أن ترثي لحاله.

وقف أمامها محدقاً في نقطة على الحائط فوق رأسها بقليل. سألها سؤالاً خاطفاً عن الأولاد وذهب إلى الغرفة. لم يتصالحا منذ اليوم الأول بل ناما كل في غرفة.

لم ترق لعمتي السرعة التي عادت بها الحياة طبيعية بينهما، فبعد يومين فقط على قدومه راح يصفن ويتكلم على مهله. لم ينتظر نسيانها ما جرى بينهما. أنزل الغرّة المروّسة حتى منتصف جبينه، حمل مفاتيحه كأن السيارة هي التي تقترب، ونزل متمهّلاً متخايلاً على الدرج.

تجمّعنا على الشرفتين الصغيرتين حين قال زوج عمتي أن عمي سيصل بين لحظة وأخرى. بعضنا استلقى على حديد الدرابزين مديراً رأسه لجهة اليمين، وبين الحين والحين، كان صبر عمتي ينفد فتترك الشرفة وتذهب إلى الداخل، لكنها ترجع بعد لحظات قليلة. أمي كان يحرّكها فضولها القليل. تأتي من الداخل، تلقي نظرة على المفرق، ثم نظرة أخرى إلى الطريق أسفل البناية، وتعود إلى الداخل.

أطلّت فجأة من المفرق. نبهنا زوج عمتي. وكي يحسم عمي كل شك عندنا، أطلق زمورين طويلين أعقبهما بحركة من يده التي ارتفعت كثيراً من نافذتها. كانت «أوبل» بيضاء. أوقفها بمحاذاة الرصيف عند مدخل البناية، وصعد الدرجات أربعا أربعا إلى البيت.

كل أسئلة عمتي كانت حول الاختلاف بينها وبين سيارة زوجها العمومية. بدت معرفتها بالسيارات قليلة حين سألته عن لون السيارة من الداخل وعن المسافة التي تفصل بين المقعدين

الخلفي والأمامي. أبي كان قد استفاق لتوه من النوم. كان جالساً على الكنبة وعيناه منتفختان. لم يظهر عليه الفضول الذي شمل كل من في البيت، وحين جلس عمي على الكنبة التي بقربه راح يسأله عن المعاملات الرسمية المتعلقة بالتسجيل، وكم كلفه ذلك.

كان يبدو طويلاً فارعاً حين يقف أمامها وحين ينخفض كي يدخل من بابها. يمسك منفضة الريش الكبيرة ويهزها في الهواء فتكبر وتنفلش كذيل الطاووس. ثم يمسكها من طرفها كي يطال بها الجانب الآخر من السطح. كان طويلاً لدرجة أنه يستطيع أن ينفض الغبار عن السيارة كلها دون أن يتحرك من مكانه. بعد ذلك يضع المنفضة في صندوق السيارة النظيف ويستمتع بالصوت الذي يحدثه انغلاقه.

عمتي تجلس دائماً بقربه على المقعد الأمامي، وأولادها يجلسون مع عمتي علية على المقعد الخلفي. بقيا هكذا حتى صار صديقاً لواحد من أقربائنا في الضيعة، راح يجلسه بقربه بينما عمتاي والأولاد ينحشرون في الخلف.

النزهة عند عمي أن تصل السيارة إلى المسافات البعيدة. أخذهم إلى طرابلس وبعلبك والأرز وسهل البقاع. في بعلبك كان يقف في منتصف البيدر الأخضر الواسع الذي تحيطه الماء. بدا نحيلاً ببذلته الرمادية المقلمة، يمشي في اتجاه الحافة التي تحبس مجرى الماء، وينظر إلى المجرى الضيق وانحدار الماء السريع، ثم يرتد إلى وسط البيدر ويعود إلى تأمل حذائه الأسود على الحشيش.

في بعلبك كان ضجراً نافد الصبر ومتحيّناً لحظة يحين موعد الأكل وتفتح عمتي الأكياس التي وضعت فيها الأوعية المملوءة بأصناف الطعام المختلفة.

عمتاي أيضاً كانتا تتنزهان كأن أحداً يشير عليهما بما يجب أن

تفعلاه. تجلسان في ظل شجرة أو في ناحية قرب مجرى الماء. عمتي عليّة كانت تتخيل نفسها في صورة فوتوغرافية تظهرها جالسة تحت الشجر وقرب الماء.

بعد أن يأكل يستعجلهما الرجوع. تعيدان الأواني الوسخة الفارغة إلى الأكياس، وتجمعان الأولاد قرب السيارة.

حين يصيرون خارج بعلبك، على الطريق الممتد المستقيم، تبدأ عمتي تكلّمه وتسأله أسئلة كي لا ينعس. تبتكر كلاماً كثيراً تقوله بنبرة مهتزة متفاوتة. لكن حين تشرد السيارة باتجاه الخط الترابي تنهره عمتي بقوة من كتفه فيرفع رأسه وينظر ذاهلاً إلى الطريق الممتدة أمامه.

بعد فترة على النزهات بدأ أبي يبدي اعتراضاته على خروج عمي الكثير.

كان يقول إنه يتنزه في الوقت الذي يجب أن ينام فيه، وانه يقضي وقته في الفرن نعساناً ذاهلاً عن العمال والزبائن.

كان عمي قد ملّ الخروج ولولا ذلك لما أبدى اهتماماً بما كان يردده أبي. لقد خفّت حماسته للنزهات، حتى أنه أهمل السيارة وما عاد يكترث بنظافتها ومكان إيقافها. ولم يطل به الأمر كثيراً حتى راح يضع فيها أكياس الخبز الكبيرة ليوزعها على الزبائن.

صار سهلاً على زوج عمتي أن ينتزع منه المفاتيح. يغيب في السيارة ساعة أو ساعتين، وحين يعود، يضع المفاتيح على الطاولة الصغيرة قرب رأس عمي النائم، ثم يخرج ثانية، لكن في سيارته العمومية هذه المرة.

عمي تأتيه صحوات ثم ينام بعدها. لم ينتظم طويلاً تقسيمه وقته بين الفرن والبيت. صار يأتي فيطلق الزمور لعمتي التي تنزل مسرعة من البيت. لا يغيبان طويلاً، وحين يعودان، يكملان الحديث على الدرج. في البيت أيضاً لم يكن يتركها وشأنها.

تنصحه أن يبادر إلى فعل شيء ما، أو أن يرى البنت بعيداً عن المدرسة ويقول الكلام نفسه أمامها.

حين ذهبتْ معه أيقنت أنه لن يتمكن من أن يلقي عليها التحية. أوقف السيارة على المفرق الذي قبالة المدرسة. انتظراها وطال انتظارهما، وحين بدأت البنات بالخروج أدار محرك السيارة، ثم عاد فأطفأه... أداره ثانية وانطلق مسرعاً حين خرجت من باب المدرسة الكبير.

عبثاً حاول أن يدل عمتي أي واحدة هي منهنّ. لم تعرف كيف هي. وكل ما بقي في رأسها التنانير الكحلية المتشابهة والقمصان ذات الجيوب على الصدر، ومعلمة شقراء يتدلّى شعرها السابل إلى خصرها.

أمي أولدت أختي الثانية في الصيف، لكن بين وقت وآخر كانت تهبّ نسمة خفيفة من باب الغرفة المشرّع. لا تطيق الجلوس في السرير. تقوم عنه وتجلس على بلاط الغرفة العاري. تسند ظهرها إلى الخزانة وتنشغل بطيّ ثياب الطفلة أو بوضع حبّات الصنوبر واللوز المقشّر على فناجين المغلي المعدّة للضيوف.

حين تأتي النسمة تقول أمي: أتت النسمة، كأنها تنبهنا إليها قبل أن تعبر من الشباك أو تتلاشى في الغرفة. أتت النسمة، تقول، فيأخذ أخي علي نفساً عميقاً فيما يرتفع رأسه إلى الأعلى، أما أخي الأصغر فيظل منشغلاً بالتحديق في الفناجين المصفوفة أمامه.

عندما تلد تعرف أمي أنها مناسبة لكي يأتي أبي باكراً إلى البيت. تبقى بقميص النوم الأبيض وتنشغل بأشياء أقلّ أهمية من المعتاد. نسمة الهواء الكبيرة تحرّك رؤوس أشجار الكينا فيصل صوتها إلى الغرفة. تنظر أمي إلى رؤوس الشجرات وتقوم إلى السرير حيث أختي الصغيرة.

حين تتلاشى النسمة تجعل أمي قعودها أقرب إلى الباب. تنظر من هناك إلى سطوح البنايات العالية والخط البحري الطويل الذي في الأفق. وحين أتت ضيفتاها أرسلت أخي علي إلى الدكانة البعيدة.

دخلت منيرة وأمها مرتديتين الثياب الفضفاضة الأنيقة. جاءتا من بيتهما الذي يبعد كثيراً عن بيتنا. هما تباعدان بين الزيارات لكن لا تقطعانها كأنما يشدهما إلى أمي حنين بطيء أو كأنهما تنتظران أن تحدث المناسبة فتأتيان.

كان في يد منيرة علبة مستطيلة ملفوفة بورق لامع. جلست هي وأمها على كرسيين متقاربين، وأخذت أمي تتحرك خفيفة أمامهما. تقوم ثم تقعد، وتمشي صوب الباب وتعود دون أن تفعل شيئاً.

منيرة وأمّها من قريبات أمي البعيدات، وحين تجلسان على كرسيين متجاورين في الغرفة تحسبهما تجلسان على مصطبة جدّتي في البلدة.

تتيحان لأمي أن تبتعد عن أجواء البيت. تقول أتى ناس من أهلها فتبتعد عمّتي إلى المطبخ وغرفتها البعيدة.

أتى أخي من الدكانة البعيدة. قامت أمي وأخذت منه صندوق الشوكولا الذي أتى به للضيافة الاستثنائية. أمام منيرة وأمها كانت الحبّات المغلّفة بورق فضي باردة كأنها أخرجت لتوّها من الخزانة. تحدثت الإمرأتان، نظرتا من الباب المشرّع إلى أعالي شجرات الكينا، صمتتا وذهبتا بعد أن تبادلتا مع أمي كلمات وداع طويلة.

رجعت أمي إلى الغرفة. غيّرت من وضع الكرسيين ولمّت فناجين القهوة بينما هي تفكّر في القريبات اللواتي ذكرتهنّ منيرة.

حين تلد أمي فتلك مناسبة لتحتفل عمّتي. تأتي المهنّئات من الجارات والقريبات، يمكثن قليلاً في غرفة أمي ثم تستدرجهن

عمّتي إلى أحاديث في غرف أخرى. مع نبيهة الشيباني تكمل عمّتي حديثاً بدأته البارحة، ومع قريباتنا يبدأ الكلام عند أمي ويتواصل مع عمّتي بين المطبخ والشرفة الكبيرة.

أمّ إبراهيم الكيلاني جلست على الأرض قبالة أمي. كانت بيضاء وأسنانها ساذجة والعرق الخفيف ينتشر على وجهها ورقبتها. تهب النسمة فينشف وجهها قليلاً، ثم يعود إليه الماء من جديد، بعد تلاشي النسمة.

أمي تستقبل أمّ إبراهيم الكيلاني منذ شهور حملها الأخيرة. دخلت إلى بيتهم في الطابق الثاني بعد أن ألحّت في ذلك أمّ إبراهيم. قعدت عندها وتحدّثنا وتواعدنا على تبادل الزيارات. صعدت أمّ إبراهيم بعد يومين أو ثلاثة. تركت أولادها في البيت. أمي أيضاً حين نزلت لزيارتها بعد مدة لم تأخذ أحداً منّا معها، كأنها سلّمت بالاتّفاق الذي باشرته منذ زيارتها الأولى.

في بيت الكيلاني تجلسان في الغرفة نفسها التي تجلسان فيها عندنا. تقعدان واحدة قبالة الأخرى أمام الباب المفتوح. أمي لفت انتباهها مشهد الحديقة والطريق وكيف يبدوان من بيت الكيلاني، حيث لا تظهر أعالي الشجرات ورؤوسها بل جذوعها الضخمة.

أم إبراهيم قالت إن بيتنا أبرد في الصيف، لذلك كانت تطيل المكوث حين تأتي. تبقى حتى مغيب الشمس فتقوم آنذاك مسرعة مستعجلة. ترجع أمي إلى الغرفة بعد أن توصلها إلى الباب. تلمّ فنجانيّ القهوة وتُلقي نظرة عابرة على أختي في السرير.

الغيبة الأخيرة للرجل الأحمر لم تكن مفاجئة لماتيلد. حتى أنه ربما أطلق زمّوره مرّات دون أن تنتبه. في الفترة الأخيرة كانت تعرف أنه لن ينتظر كثيراً بعد أن يطلق زمّوره، لذلك كانت تتكاسل عن الخروج إلى الشرفة.

لم تغيّر غيبته شيئاً من عاداتها. ظلت تقضي أكثر وقتها وحيدة في البيت، وظلت ملامحها هي ذاتها لا تتغيّر أثناء عبورها الخطوات الأربع التي تفصل بين بابها وباب مدام خيّاط. كذلك لم تغيّر شيئاً من علاقتها بسكان البناية الآخرين. تردّ على التحية بأخرى مقتضبة صارمة ولا تفارق يدها حلقة الباب المعدنية إيحاء بالدخول.

عمّتي كانت ترتبك حين تصادفها أمام الباب. لا تعرف كيف تحيّي ولا ما إذا ينبغي لها أن تنتظر الإجابة. كانت تقرّر أحياناً، وهي في أسفل الدرجات المؤدية إلى الطابق الثالث، أنها ستعبر دون أن تلتفت. تجعل وجهها منحرفاً قليلاً إلى اليسار، وتصعد وهي شاخصة إلى أعلى الحائط كأنها تتابع خطاً وهمياً فيه. لكنها

تضطرب في اللحظة الأخيرة، فتلقي تحية مضطربة عجلى، وتهرع على الدرجات دون أن يتاح لها سماع الإجابة.

لم تردّ ماتليد التحية هذه المرّة. أيقنت عمّتي ولم يكن من مجال للشك. لم تقل ماتيلد شيئاً بل هبط الانتفاخ الرقيق على عينها الكبيرة. لم تردّ التحية. صعدت عمّتي إلى البيت لكن لم يطل مكوثها فيه. نزلت إلى نبيهة الشيباني التي كانت وحيدة في بيتها.

نبيهة الشيباني تزيد عمّتي تأزماً. توقف سيل الكلام الغاضب الذي تندفع فيه عمّتي بأن تنفذ منه لتجرّه إلى حديث خارج المناسبة. يتقدّم رأسها إلى الأمام وتنتفخ أوردة في رقبتها وتروح في كلام تبدأ عمّتي تفكّر بالصعود إلى بيتها من منتصفه.

في البيت تتذمّر لكن بكلمات متباعدة طائرة. لا تكلّم أحداً ولا تعني بكلامها أحداً. تشتم أنواعاً من الأشخاص وليس شخصاً محدداً. أمي تجمع كلمات عمّتي المتفرّقة فتعرف أنها ماتيلد، الرجل والمجهولة الأب والتي لا تُدخل الأكل إلى بيتها.

في نزهته عند الغروب لا يُشاهد الروسيّ شيئاً يختلف عمّا كان يشاهده منذ سنين طويلة. سور الحديقة الحجري ما زال هو ذاته لم يتغيّر. والبيوت التي قبالة الجهة الشرقية من السور لم تتغيّر أيضاً. ما تزال محتفظة بالحدائق الصغيرة التي أمامها، والطوابق الأعلى تدلّت من شرفاتها نباتات وأزهار وأشجار بيتية صغيرة. الشرفات حدائق البيوت العالية. لا يجد الروسي شيئاً تغيّر. ساكنو البيوت لم يتغيّروا رغم أنهم باتوا قليلين وقليلاً ما يبتعدون عن أبوابهم الكبيرة المؤدية إلى الخارج.

يقف الروسي مستنداً على السور الحجري. هذا الشارع لم يتغيّر ساكنوه لأن الحدائق جعلت المساحات الخالية غير قابلة للبناء. لم يترك البناؤون مساحات خالية حتى أنهم في سبيل ذلك بالغوا في إطالة المماشي الخارجية وفي توسيع المداخل أمام أبواب الطوابق الأرضية. كانت المنطقة مرتبة منسّقة كما كانت منذ نزهاته الأولى. والصمت الذي يميّزها بقي هو نفسه، إذ إن البناية الضخمة التي في نهاية الشارع، والتي بنيت في وقت لاحق،

كانت تحجز الحركة وأصوات السيارات عن أن تصل إلى البيوت.

لم يغيّر طريق نزهته. والتغيرات التي ما فتئت تحصل في المنطقة التي لجهة الجنوب لم تثر فضوله. يمشي مبطئاً وينزعج أثناء سيره حتى من حجر ساقط من سور الحديقة. لم يرق له مشهد النصب القديم الذي حملوه من موضعه السابق في ساحة البلد ووضعوه قريباً من الزاوية السفلى من الحديقة. رآه فجأة فيما كان يتنزه، وانزعج لأنه لم يلاحظ مراحل تركيبه في نزهاته السابقة.

لا تفارقه الرائحة التي تنبعث من الرصيف الذي يلف الحديقة. تقوى في مواسم يعرفها: حين تتساقط ثمار أشجار الكينا الجافة ذات الشعيرات الكثيرة. يعرف على أي علوّ من الأشجار تقف العصافير. وحين يخرج لابساً قبّعته البنية القديمة لا يتّكئ على السور ولا يضع يده عليه لأنه يعرف ان ماء الشتاء قد دخل إلى قلب الحجر الرملي وبقي فيه.

حين يأخذه التعب في طريق عودته يطيل الوقوف بين الخطوات. مرّة جلس على الحافة عند مدخل بناية قريبة للبيت. وضع عكازه بجانب رجله وأخذ ينظر إلى الأولاد كأنه يبدي رغبة في التحدّث إليهم.

راح أكبرهم يسأله عن روسيا. كانوا متحلّقين حوله وهو بينهم في الوسط وإلى جانبه عكازه. ابتسم وسعل سعلة ارتجّ لها خدّاه وذقنه. تكلّم عن كيف كانت المنطقة حين أتى. يختار بيوتاً ويتحدّث عن ساكنيها فيما يشير بيده إلى مواضع البيوت التي يتنقّل بينها. كان يسعل في منتصف الجمل، مقطّباً حاجبيه مما يجعل الأولاد يتذكّرون لحظات غضبه وبرمه على الطريق.

حين همّ بأن يقوم أمسك أحد الأولاد بيده. لم يبدُ عليه أنه يرغب في أن يصحبه الأولاد في المساحة المتبقّية إلى البيت. مشى مبطئاً رغم أنه لم يتكّئ أبداً على حيطان المحلات وأبوابها.

من يوم أن شاع بين الأولاد أن ابنته تتمرّن على الملاكمة وأنا أسمع، حين أمرّ قرب نافذة بيتهم، طرقاً على كيس التمرين المتدلّي من السقف. كانت تقف مواجهة الكيس في الغرفة ذات البلاط العاري وقد انتشرت حولها، في زوايا الغرفة وبمحاذاة الحيطان، معدّات رياضية مختلفة الاحجام.

إبنة الروس الشقراء الممتلئة لا تتكلّم أبداً. وحين تضع أقدامها الثابتة على الأرض يروح الأولاد ينظرون إلى شعرها الذي تجدله كالكعكة. كانت تبدو بنتاً صغيرة لكن بجسم كبير.

تزوّجت إنكليزياً. مكث يومين في بيتهم وحين غادر كان متأبّطاً حقائبها إذ أنه رفض أن تحمل أياً من أغراضها بنفسها. عمّتي رأته من الطابق الخامس. كان شاباً وذا لحية صغيرة ويعمل طبيب أسنان في بلده.

الروسي الذي أحبّ أن يقوم بمراسم الوداع كاملة أبى إلاّ أن يصل معهما إلى باب السيارة، لكن، فيما كان ينغلق صندوقها على الحقائب كان لا يزال يعالج الدرجات الثلاث متكئاً على الدرابزين الحديدي. انطلقت السيارة وهو لم ينته بعد من هبوط الدرجة الأخيرة.

أمها كانت خلف النافذة. وحين انطلقت السيارة بهما أغلقت النافذة كأنها تأخرت عن عمل في الداخل. قالت عمّتي إن علينا أن نذهب إلى بيتهم ونواسيهم. زوجها راح يمزح حين سمعها، وقال لأبي الجالس إلى جانبه إن عمّتي تحبّ أن تمرّن لغتها الفرنسية عندهم. قالت أمي إن نبيهة الشيباني ومدام لور هما من أوحى لعمّتي بذلك لأنهما نزلتا مع زوجيهما إلى بيت الروس في عشية اليوم الذي رحلت فيه ابنتهم.

كانت ثلاثةُ مكبّرات للصوت قد عُلّقت على الداخون العريض الذي يرتفع أمتاراً عن السطح وقد وُجّهت في اتجاهات مختلفة، صوب البنايات القريبة والشارع المؤدّي إلى حي المنلا.

في أثناء النهار كانت الحركة في بيتنا قد قويت وبلغت ذروتها. أتى الأقرباء من الضيعة. جدي وجدتي وكل من كان قريباً لنا. كذلك لم ينقطع عن البيت أقرباؤنا الذين يسكنون في مناطق بيروت المتفرّقة. لقد دُعيوا جميعاً ودُعي معهم كل الذين تربطهم صلة بأحد سكان البيت. قال أبي أن أدعو أساتذة المدرسة. انتظرتهم على باب الحديقة لأنهم لا يعرفون البيت. أتوا جميعاً، وعلى الطريق القصيرة راحوا يسألوني إن كان عمي متعلّماً أم لا.

كانت تلك فكرة أبي، أن يجري الاحتفال على سطح البناية. قال إنه يتسع لجميع المدعوين. أهل العروس كأنهم من سكان بيروت، قدموا إليها من زمن بعيد ويتكلّمون تماماً مثل سكان الحي البيروتي الذي يعيشون فيه. كانت طويلة قليلاً وتتكلّم على مهلها، وحين رأيناها قبل العرس بأيام قال أخي علي إنها تشبه

معلّمات المدارس المسيحيات .

دخول الأغراض إلى البيت لم يتوقف . كان يطفح بالأغراض التي أدخلت إليه. أمي وعمتي وعمتي عليّة وجدتي وسائر قريباتنا رحن، طيلة أيام ثلاثة، ينهمكن في الطبخ والتحضير حتى يتفرّغن يوم الاحتفال. أتى أصدقاء أبي وعمي من الضيعة ومن مناطق بيروت وصعدوا إلى السطح منذ ما بعد الظهر وبدأوا يتذكرون نكاتاً وحكايات ويضحكون .

وقد دُعي الجيران في البناية ومن الحي. صاحب الدكان الذي من بيت الغزاوي كان رجلاً مختلفاً في العرس. ارتدى ثياباً كثيرة فبدا كأنه تاجر خضار كبير .

الدرج على طول الطوابق الخمسة، صعوداً إلى السطح، كان مغموراً بضوء ساطع. زوج عمتي كان قد أنزل من الفتحة التي بين الدرجات شريطاً كهربائياً طويلاً علقت فيه لمبات كثيرة. كان عمي، حتى قبيل الاحتفال بقليل، طالعاً نازلاً على الدرج، منشغلاً بنقل القريبات والأغراض وسائر الأشياء الأخرى. حين صعد للمرة الأخيرة كان شعره مصفّفاً وذقنه حليقة، وحين ارتدى طقمه الصيفي المقلم بعد خروجه من الحمام فاحت منه روائح عطرة.

نبيهة الشيباني كانت منهمكة أيضاً. تقف أمام أمي وعمتي وقريباتنا المتجمّعات في المطبخ وتطلق نكاتاً سريعة، وبين الحين والحين تسأل عمتي إن كان عليها أن تحضر شيئاً من بيتها. في يوم العرس انتقلت صحون بيت الشيباني كلها إلى عندنا. مدام لور أيضاً أعارتنا صحوناً وأكواباً وفناجين قهوة.

على جانب من السطح، بالقرب من احدى زواياه، غطّى أبي صندوقاً مملوءاً بقناني الويسكي والنبيذ. كان زوج عمتي يأخذ من وصل مبكراً بيده ويرفع له الغطاء قليلاً ويروح معه في ضحك

أبله. واحد من الأقرباء كان يتصرف وكأنه سكران وغائب عن الوعي وهو لم يحتس كأسه الأولى بعد.

حين بدأت الفرقة الزجلية بهزّ دفوفها كان السطح غاصاً بالمدعوين الذين تجمّعوا حولها وانتشروا جماعات في الزوايا المتفرقة على السطح. أحد الزجالين، وكان يعرف أبي، بدأ كلامه عن كرم العائلة من زمان قديم. كان صوته يطلع من المكبرات الثلاثة وينقذف إلى البنايات المجاورة والشارع الذي لجهة الجنوب. والذين في زوايا السطح كانوا يسمعونه من المكبّرات وليس من صوته.

كان الأقرباء يردّدون، وبصوت واحد، اللازمة التي قالها الزجّال عن كرم العائلة. كانوا يقرّبون رؤوسهم أو يرفعونها فيما هم يغنون، ومنهم من يعلي صوته حتى حدّه الأقصى.

نبيهة الشيباني كانت منفتحة على الساهرين، أكثر من كل الجيران. تقترب من الرجال المنطربين وتطلق نكتة لزوج عمتي فيسمعها الجميع. كانت دائمة التنقل بين حلقات الناس التي لا جامع بينها، حتى أن أساتذة مدرستي الذين أخذوا ركناً من السطح تحلّقوا فيه، لم يبتسموا إلا لها.

مدام لور وزوجها كانا في المساحة الوسطى التي تفصل أقرباءنا عن المتحلقين المنتشرين في الزوايا. يقتربان من الطاولة كلما مرّ أبي أو عمتي، وإذا ما طال ابتعادهما يرجعان خطوات إلى الخلف. كانت ابتسامة باردة ذاهلة لا تبارح إبراهام زوج مدام لور. يوسع شفتيه كلما رأى أحداً ينظر إليه، وسلة الزهور الكبيرة التي عليها اسمه واسم زوجته موضوعة على الأرض بين رجلي الطاولة العاليتين.

حين تقدّمت المطربتان الشقيقتان إلى المذياع دار همس بين الحاضرين. قالوا إن زوج عمتي هو الذي دعاهما. كانتا ترتديان

ثياباً مرتّبة مكشوفة عند الظهر. وقفتا أمام المذياع وانطلقتا تغنّيان سوياً أغنية واحدة. كان صوتهما يطلع من المكبرات الثلاثة كأنه صوت مغنيات يغنين في الراديو.

زوج عمتي راح يردّد معهما بعض مقاطع من أغنية. كان في الصف الأمامي بين الأقرباء. في الخلف وقفت إمرأة تمسح دموعاً انهالت على خديها، قال زوج عمتي إنها أمهما. واحد من الأقرباء قال إنها تبكي لأنها تجدهما مضطرتين للغناء أمام الغرباء، لكن قريباً آخر قال إنها تبكي من الفرح.

عمتي وأمي كانتا تتداولان بشأن فتح الصناديق الكبيرة وتوزيع علب العرس. كانت الصناديق الكبيرة الثلاثة موضوعة في الصالون. أتى بها الحمالون الذين أرسلهم محل بيع العلب. وقبل أن يخرجوا أعطتهم أمي أكلاً وأعطاهم أبي نقوداً ونزلوا الدرج متمهلين.

أمي كانت تسأل أبي متى يبدأ توزيع العلب. كانت تلح في سؤالها ولم تتوقف عنه إلا حين حمل بعض الرجال صندوقين كبيرين من الصناديق الثلاثة إلى السطح ووضعوها في الزاوية حيث يقف الغزاوي صاحب الدكان. ابتدأ التوزيع الفوضوي الذي لم يطل جميع المدعوين لأن كثيرين منهم أخذوا علبتين أو ثلاث علب أو ربما أكثر.

قال أبي إن عرس عمي كلّف آلاف الليرات حتى أن عمي، في أيام التهيئة له، كان يخرج ثلاث مرات في اليوم الواحد ليحضر نقوداً.

حين أتت العروس مع أبيها غنّت لها المطربتان الأغنية التي تتهادى العروس على إيقاعها. غنّى معها بعض الأقرباء والمدعوين الذين ما لبثوا أن انشغلوا عنها بعد دقائق من وصولها. وقف عمي قربها وقد وضع كفّه على قبة بدلته. شعّ الضوء الباهر

من آلة التصوير. شعّ مرة أخرى حين وقف أبي وجدي معهما، وأخذت الآلة تصوّر كل مجموعة تتحلّق أمامها.

قال لي أبي أن أسأل الأساتذة إن كانوا يحبّون أن يتصوّروا. وقفوا صفاً واحداً أمام آلة التصوير. كانوا يبتسمون، وفي الصورة الثانية كنت أنا بينهم، في الوسط تماماً.

كان المصوّر صامتاً مطيعاً حين راح أولئك الذين أكثروا من الشراب يستدرجونه إلى الصور المضحكة. وهو ظلّ صامتاً متشاغلاً حين راح زوج عمتي يقول إنه لا يصوّرهم بل يطلق لهم إضاءات كاذبة.

حين تخلي حلقة من المدعوين مكانها وتغادر كانت تظهر الأرض تحتها مليئة بالقشور والأكل الذي التصق بالأرض. قالت أمي إن التنظيف سيستغرق وقتاً أطول من الوقت الذي استغرقه الإعداد للعرس. نزل الأساتذة دون وداع كاف لأن أبي سكر ونام في الفرشة التي وضعتها أمي في غرفة بعيدة عنّ الناس.

مدام لور ذهبت بعد أن ألحّ زوجها كثيراً. نزلا معاً على الدرج، متقاربين، كأن بيتهما يقع في شارع بعيد عن البناية.

ماتيلد لم تُعر أذناً صاغية لمدام خيّاط حين حاولت إقناعها بالذهاب إلى العرس مثل الجيران الآخرين. حتى أنها كانت تحسب أن جارتها غير جادة كثيراً في ما تقول. مدام خيّاط لا تستطيع أن تصعد وحدها إلى السطح. بقيت في البيت، مثل ماتيلد، التي عاشت أياماً في هاجس الجلبة التي تنبعث من الصاعدين النازلين على الدرج، والمحمّلين بالكراسي والأغراض والزينة.

لم تشهد البناية جلبة كهذه، بل وفكّرت ماتيلد أيضاً أن بيتنا اتّسع وامتدّ إلى درجات الطوابق الخمسة والسطح. وفي يوم الاحتفال لم يسمع أحد صوت المكبّرات كما سمعتها ماتيلد. لم تستطع أن تنام، جلست في فراشها وقد حافظت على ساقيها مستقيمين وظهرها إلى حافة السرير.

مدام خيّاط كانت قلقة أيضاً. دخلت ماتيلد بعد أن انتظرت جارتها الآتية من الغرفة الأخيرة كي تفتح الباب، دخلت إلى كرسي التواليت كما تعودت. تكلمتا قليلاً، وحين نظرت ماتيلد

إلى طرف الخزانة وقع بصرها على حقيبة جارتها وقد أُنزلت من سطح الخزانة. قالت لها مدام خيّاط إنها اشتاقت لابنتها وللأولاد. وستصعد هذه المرة كي تقنعهم بالسكن معها في بيتها الواسع.

حين ذهبت بعد يومين صعد السائق وأنزل الحقيبة التي حشرت فيها مدام خيّاط ثياباً كثيرة.

أقفلت الباب بالمفتاح. كان وجهها نضراً من جراء التجميل الذي لوّنه. وكانت ماتيلد تودعها متعجلة حتى ان مدام خيّاط عرفت ان جارتها ستصير في بيتها قبل أن تنعطف هي نحو درجات الطابق الثاني.

الفصل الثاني

قالت أمي إن علينا أن نعطي مفاتيحنا لعمتي قبل أن نغادر. أخذ أخي علي المفتاح مني، وضعه في كفّه مع مفتاحه، وأعطاهما معاً لعمتي التي تباطأت قليلاً في أخذهما.

بعد أن أخذت المفتاحين كزّ أخي أسنانه وقطّب جبينه وهدّل خديه. انحنى إلى حيث جوارير الخزانة على الأرض، حملها، وخرج بها إلى فسحة الدرج. كان الحمالان يلهثان وهما يتسلّقان الدرجات الأخيرة نحو بيتنا. يترنحان ويخبطان أرجلهما خبطاً على الدرجات. تساعدا على حمل الخزانة. عقد واحد حولها الحبل الذي لفّه حول وسطه ومقدّمة رأسه. وضع رجله على الدرجة الأولى، بينما رفيقه يسير وراءه حذراً خفيفاً ولا يكف عن إطلاق توجيهاته.

حين أزاح الحمالان الخزانة من مكانها في غرفة النوم ظهرت تحتها طبقة سميكة من الغبار الكثيف. هرعت عمتي إلى مكنستها وراحت تلمّ الغبار عن مكان الخزانة الفارغ. هكذا فعلت حين أزحنا فرن الغاز. لمّت الغبار الذي تراكم تحته وقرّبت فرنها إلى

وسط المطبخ. وحين انتهى أخي من نقل الكنباية الكبيرة في الصالون كانت هي قد انتهت من توزيع كنباياتها على مساحة أوسع. وضعت طاولات الصالون الصغيرة في أماكن متباعدة، وأحضرت من خزانتها أغطية نظيفة مخرّمة ونشرتها على الطاولات.

أخي علي صعد إلى الشاحنة مع السائق والحمالين. أما نحن، أمي وأخوتي وأنا، فقد ذهبنا سيراً باتجاه حي المنلا. وحين وصلنا إلى تقاطع الشوارع، انحرفت أمي يساراً بينما أختي تنوء بحمل الأكياس الكثيرة لكن من دون أن تتذمّر. أختي الصغرى كانت تحمل حقيبة يد منتفخة بكلتا يديها. أما أخي الأصغر فكان رأسه مملوءاً بالكلام الذي راحت تردّده أمّي عن عمّتي.

كان عليها هي أن تغادر البيت، تقول أمي، وأبي لم يستعمل حقه في ملك هو لأبيه. الإيجار باسم جدنا، قالت، فكيف سكت أبي ولم يتكلم.

عمتي، فيما هي ترتّب الغرف أمام أعيننا، كانت تتصرف وكأننا ضيوف أطلنا الإقامة. أتت إلى البيت قبلنا بثلاثة أشهر، مع جدي ووسيلة وأم حبيب. ورغم السنوات الكثيرة ظلت ترى، بسبب من تلك الشهور الثلاثة، أننا نتدخّل في ما لا يعنينا إذا اقترح أحد وضع ستائر تغطّي التتخيتة المكشوفة أو إقفال الحمام العربي الذي يعلو ماؤه فيخرج من الباب إلى الممشى.

في الليلة التي سبقت مغادرتنا لم أستطع أن أطيل النظر في وجه زوج عمتي. كان صامتاً عاقداً بين حاجبيه كأنه ينتظر أن يقول أحدنا شيئاً لكي يردّه لقائله قوياً لئيماً. لم يكلمه أبي حين أتى من الفرن ووجده على الكنباية الكبيرة في الصالون يوزع نظراته بين الأرجاء والزوايا. دخل أبي إلى حيث كنا نجلس. لم يشأ أن يأكل. قال إنه تعبان. وضعت أمي له فرشة بيننا، ونام

بمجرد أن أسند رأسه إلى المخدة.

انعطفت أمي باتجاه الشارع المؤدي إلى المنطقة العالية. كانت الطريق تبدو طويلة ونحن ننظر إلى آخرها من حيث نسير. قالت أمي فلنسترح قليلاً. وقفنا. وضعنا الأكياس والأغراض الأخرى على الأرض. استندت أمي إلى حائط وراحت أختي تفرك كفيها كي تزيح الخطوط الحمراء التي حفرتها فيها مسكة المحفظة. حين عدنا إلى المشي تراجعت أمي عن موقعها في المقدمة. باتت خطواتها القصيرة كأنها ترجع بها إلى الخلف. كنت كأني أراها للمرة الأولى على الطريق. فوجئت كيف أنها تمشي قرب البيوت وكيف تقطع الشوارع. وحين قطعنا حي المنلا، ووصلنا إلى الأماكن التي كنت أصِلُها مع الأولاد، رأيتها كما لو كانت إمرأة ثانية.

أحزنها أن نخرج من البيت بعد كل هذه السنين. حين صعدتْ نبيهة الشيباني ومدام لور لتودّعاها لم تمكثا عندها طويلاً. نبيهة الشيباني استسلمت لكلام عمتي عن توزيع الأثاث على الغرف وعن الديكور الذي ستجريه في الصالون. لقد ودعتاها كأنهما تقومان بواحدة من زياراتهما العادية حين تمرض أمي أو تلد. مدام لور لم تمكث طويلاً، قالت إنها وضعت على النار شيئاً تخاف أن يحترق.

أحزنها أن نخرج من البيت بعد كل تلك السنين. حين وصلنا إلى الطابق الثاني فتحت أم إبراهيم الكيلاني بابها فجأة، كأنما رأت من ورائه أننا أصبحنا في الفسحة التي أمامه، وعانقت أمي وانحدرت دمعتان من عينيها. أمي كانت تبكي هي أيضاً لكن كانت الدموع تنزل إلى حنجرتها وتبقى فيها. وفي كلمات الوداع القليلة التي تبادلتها مع أم إبراهيم كان صوتها خفيفاً، مرتجفاً، وفيه نغمة غريبة.

وجه أم إبراهيم الكيلاني بدا ساذجاً، أكثر سذاجة من كل المرات السابقة. ظلت واقفة ويداها على الدرابزين حتى خرجنا من باب البناية وأصبحنا في الشارع.

كانت خطوات أمي تصبح أقصر كلما تقدّمنا في الشارع العالي نحو محطة البنزين. بدت تحرّك رجليها القصيرتين برشاقة، وتكثر من الخطوات، لكن قليلاً ما كانت تتقدم. قال لي أخي الأصغر مازحاً أن علينا أن ندفشها حتى نصل إلى محطة البنزين.

لقد ارتحنا من الدرج. كان أبي يظهر، بعد أن يقطع الطوابق الخمسة، مصفرّاً لاهثاً كأن قلبه سيتوقف عن الخفقان. وكنا نعرف أنه آت من نوبات السعال التي كانت تنتابه ابتداء من الطابق الثاني. يتكئ على الدرابزين أو على الحائط ويتردد قبل أن يرمي السيجارة من يده.

قالت أمي إن البيت ليس بعيداً عن محطة البنزين. خطوات ونصل إليه. كان الشارع الذي يقع فيه البيت مزدحماً، وعلى جانبيه تزاحمت دكاكين بائعي السمانة والخضار ومحل اللحام والصيدلية وداريْ السينما المتلاصقين وصالون الحلاقة والمطعم. صاحب محل السمانة الذي أمام بيتنا الجديد خفّ لاستقبالنا. كان من قرية قريبة لقريتنا. قال إنه يعرف جدّي وبعض أقربائنا من العائلة.

كان الحمّالان قد وضعا ما أنزلاه من أغراض في أول البيت. حين دخلنا الباب الحديدي الأسود نزل صاحب الملك من بيته في الطابق الثاني. كانت على رأسه قبعة بيضاء كتلك التي يعتمرها كبار السنّ في القرى. حيّا أمي دون أن يصافحها، وسبقنا إلى غرف البيت وهو يكثر من الترحيب وإطلاق الحكم والكلمات المؤمنة.

حين رحت أتردّد إلى الحديقة الكبيرة كان الرصيف المحاذي لحائطها يفوح برائحة غريبة. ظننت أنها رائحة ثمار الكينا الصغيرة المغطاة بالشعيرات اليابسة. في داخلها مادة لزجة، صمغية تلتصق بالأصابع وتعلق بالثياب. لكن، ظلت الرائحة من بعد أن جفت الثمار ويبست. لم تكن هي الرائحة القديمة إياها. كانت تنبعث من شيء آخر.

أدخلُ إلى الحديقة الكبيرة. المقاعد الخشبية الخضراء استُبدلت بأخرى رخامية يسري منها البرد إلى وسطي وظهري حين أجلس عليها. أقوم إلى حيث الشمس، إلى الفسحات الخالية من الأشجار. باتت الأشجار أقل كثافة. في طرف الحديقة الشمالي انتزعت الأشجار المزهرة الكثيفة وحلت محلّها زهور منسّقة وطريق ضيقة من الإسفلت.

لم يعد ذلك الطرف من الحديقة إلاّ معبراً للوصول إلى طرفها الآخر. كان قبل ذلك يشبه دغلاً صغيراً. أتجوّل في أطراف الحديقة. أقف تحت الشمس، على مقعد رخامي دافئ. أفتح

الكتاب وأكمل القراءة من الموضع الذي انتهيت إليه في اليوم السابق.

بدت البناية أكثر ارتفاعاً مما كنت أحسب، وبدت أيضاً، من ذلك البعد، محافظة على استقامة زواياها ودقّتها. كانت من بعض المواضع كأنها ما زالت جديدة. الشرفات الصغيرة المتوازية، المحافظة على المستوى الواحد من المسافة بينها، جعلتني أنتبه إلى أن حائط البناية الكبير ما زال نظيفاً، بل وساطعاً من بعض المواضع، كأن يد الدهان قد فرغت منه لتوّها. كانت مرتفعة وجديدة من حيث أنظر من الحديقة. وكانت، لشدّة ارتفاعها من ذلك الموقع، تبدو وحدها، منفصلة عن البنايات المجاورة لها.

مشهد البناية وهي ترتفع وحدها وسط الأرض الفارغة لم يره إلا الروسي. كان يستطيع أن يشاهد استواء زوايا الحيطان حتى حين يقرّب منها عينيه ويلمسها بيده. كان وجهه الأبيض يفور بالحركة وشعره البنيّ الأملس ينهدل قليلاً عن جبينه. الروسي هو الوحيد الذي استطاع أن يشمّ رائحة الطلاء الجديد، وأن يلمس بيده المعدن اللامع الذي للحنفيات. كان كل شيء يلمع في البناية حين دخلها شاباً إلى بيته في الطابق الأرضي. لم يكن ينتظر الساكنين الذين سيأتون بعده. انشغل بتأمّل مرتادي الحديقة الذين ربما أنشأ علاقات مجاملة مع بعضهم.

تبدو البناية جديدة حين أنظر إليها من ذلك البعد في الحديقة. حسبت أنها لا تعتق إلا من الداخل، من الدرج والدرابزين والشرفات. كانت تعتق أيضاً من جهتها الأخرى، الجهة التي تحمل الشرفات الكبيرة والقساطل الغليظة التي ترتفع إلى السطح. الشرفات الكبيرة مخازن مكشوفة للبيوت. تضع عمّتي عليها زريعتها الكثيرة وتنشر عليها مدام لور غسيلها وتضع أم إبراهيم الكيلاني في زاويتها براداً عتيقاً.

الشرفات الكبيرة هي الأكثر عتقاً في البناية، وهي تطلّ على الشوارع التي ازدحمت فيها البنايات الشعبية، مما جعل الساكنين لا يأبهون كثيراً لها لكونها مشاهد خلفية للبيوت. أما على الشرفات الصغيرة فيظهر الساكنون ظهوراً عابراً وذلك بعد أن يرتدوا ثياباً خُصِّصت للزيارات. أطلّت عمّتي من باب الشرفة الخشبي. تقدّمت إلى الدرابزين. نظرت إلى الأسفل. ثم رجعتْ باتّجاه الداخل وأقفلت الباب.

حين صعدتُ على الدرج لم يفتح أحد من الساكنين بابه. لم أرَ أحداً. الغطاء الزجاجي القديم لم يزل يحيط بالمصباح الكهربائي فوق باب ماتيلد. مدام لور ما زالت على عادتها في تجديد بيتها. بدا بابها لامعاً كأن طلاءه ما زال طرياً رطباً.

ضغطتُ على جرس عمّتي. سمعت خطواتها المتعجلة على بلاط الممشى قبل أن تفتح الباب.

على الشرفة الكبيرة قالت إنها كانت تعرف أني سآتي لزيارتها. تكلّمتْ عن ابتعاد أبي وقالت كلاماً سمعتُه عن لسان أمي. ولم يكن أحد سواها في البيت.

بدا المطبخ فسيحاً. في زاويته وضعتْ صحون الطعام على الطاولة. البيت نظيف وهادئ. الآن تصعد مدام لور، قالت. أغبطتني معاملتها لي كرجل حين أتت بفنجانيْ القهوة على الصينية. وضعتْها على طاولة صغيرة، وجلست قبالتي وراحت تسألني عن بيتنا الجديد ومن يزورنا من الأقارب فيما هي ترشف قهوتها حتى التفل الذي في قاع الفنجان.

مدام لور بدت أكثر إلفة مع البيت. حين دخلتْ بدأتْ تتحدّث بصوت عال سمعته من مكاني على الشرفة الكبيرة. قالت لها عمّتي إني أتيت. سلّمتْ عليّ كثيراً وسألتني عن أمي. قلت لها إني لاحظت الطلاء الجديد على بابها. استبدلتْ نظارتها بواحدة

أكثر سماكة. ما تزال تحمل الصنانير والكرات الصوفية.

الجزء الذي حاكته من الكنزة وحركة يديها المتتابعة جعلاني أحس الإلفة التي تجمع بين عمّتي وبينها وهما جالستان على الكنباية ذات الغطاء النظيف. خلفهما حائط البناية المجاورة، ومن الباب تأتي شمس دافئة تضيء الغرفة. لم تمكث مدام لور طويلاً. حسبتُ أن وجودي هو الذي جعلها تخرج. سألتني عمّتي إن كنت جائعاً. قمت من الشرفة باتجاه الصالون. معتم وفسيح. اشترت عمّتي كنبايات جديدة عالية ووضعت على الحائط المواجه للباب زينة من الجفصين المطلي باللون البني. الغرفة الملاصقة للصالون كانت فارغة. لم تضع عمّتي شيئاً على البلاط العاري. كانت الحيطان باردة وعالية وليس سوى البرداية الشفافة تغطي الباب. أزحتُ البرداية، ورحت، من خلف الزجاج المقفل، أجيل النظر في الحديقة. في الأماكن التي تجوّلت فيها قبل قليل ورحت أنظر منها إلى البناية.

لم تعرف نبيهة الشيباني إن كانت قد استفاقت من نداءاته الأولى أم أنها ظلت نائمة فيما هو يناديها ويستغيث. كان صوته كأنه يرتفع من تحت اللحاف، ضعيفاً مخنوقاً لكن متلاحقاً. وحين أشعلت الضوء رأته على هيئة مفزعة. كان يتصبّب عرقاً وخدّاه شاحبان أصفران.

لم تعرف ماذا تفعل. هرعت إلى حيث ينام الأولاد، غير أنها حين وصلت إلى الممشى بين الغرفتين أرجعها صوته الذي صار أكثر خفوتاً واختناقاً. لم تكن تعرف ماذا تفعل، إذ قضت اللحظات القليلة الحاسمة متنقّلة موزّعة في المساحات القليلة الفاصلة بين غرفته وغرفتي الأولاد.

حين فتحت عمّتي لها الباب رأتها تهتزّ وتذرع المسافة الصغيرة التي قبالته جيئة وذهاباً. قالت لها إن زوجها قد مات ونزلت قبل أن تنتظر شيئاً من عمّتي التي ركضت إلى الداخل. أيقظت زوجها فيما هي تُسقطُ ثوبها من رأسها نزولاً إلى باقي جسمها.

حين نزلت عمّتي كان نبيل ملتصقاً بحائط الغرفة متشبثاً فيه

كأن أحداً يدفعه إلى حيث يرقد أبوه وهو يتمنّع. كانت عيناه منفرجتين واسعتين، ومثل أمه، كان يهتز لكن يعود فيهدأ. حين أصبحت عمّتي قريبة منه كرّر لها ما كانت قالت أمه. قال إن أباه مات، وأخذ ينظر إليها فيما هي تقترب من أختيه الملتصقة إحداهما بالأخرى.

حين دخلت مدام لور كانت آثار النوم بادية على وجهها. كانت تخفي ارتجافاً ألمّ بها من جرّاء مفارقتها السرير الدافئ. راحت تربت على أكتاف الأولاد وتتجوّل مسرعة بينهم وبين أمّهم. كانت تكلّم كلاً منهم على حدة بصوت هامس خفيض، وحين أطلّت برأسها من الباب إلى حيث يرقد تراجع نبيل خطوة إلى الخلف بينما أطلقت نبيهة الشيباني صيحة جعلت ابنتيها تباشران البكاء دفعة واحدة.

كان في الغرفة ممدّداً وعلى وجهه ملامح من قضى وقتاً ينازع. كان اللحاف مكوّماً عند قدميه. لم تفعل زوجته شيئاً، لم تغيّر وضعه رغم أنها عرفت أن عليها أن تغطّيه. لم ترفع اللحاف المكوّم من تحت قدميه. خافت وتركت ذلك لساكني البناية.

زوج عمّتي توجّه توّاً إلى نبيل الذي ظلّ محافظاً على اتّساع عينيه. صافحه وقال له إنه صار من الآن فصاعداً رجل العائلة. قال كلماته تلك دون أن يظهر عليه شيء من التأثر، وحين فرغ، ذهب إلى الصالون حيث جلس على كنباية وراح في تدخين عميق.

قالت مدام لور إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً قبل الصباح. دخل زوجها. كان حالقاً ذقنه ومرتدياً بدلة رمادية. جلس قرب زوج عمّتي في الصالون وأخذا يتحدّثان عن المرات الأخيرة التي رأياه فيها على الدرج.

زوج عمّتي فكّر أن سكان البناية عائلة واحدة حين رأى عمتي

تطوف بالقهوة على القاعدين في البيت. قبل ذلك سوّت الأسرّة ورتّبت غرفة الجلوس. أنجزت ترتيب الغرف بسرعة وحين انتهت منها ذهبت إلى الصالون. وضعت على الطاولات منافض سجائر، وأضافت بعض الكراسي إلى المساحات الفارغة بين الكنبايات. كانت تعدّ البيت ليستقبل القادمين إليه في الصباح.

ماتليد انتظرت حتى السابعة صباحاً. كانت مدام لور قد أخبرتها قبل ذلك بحوالي الساعتين. اقتربت من نبيهة الشيباني مبطئة وقالت لها كلمات سريعة. تحدّثت أيضاً مع ابنتيها. أما نبيل فقالت له كلمات مواسية وهي على بعد خطوات منه. كان صوتها الخشن قد جعل البنتين تكفّان عن البكاء. قامت بواجباتها وذهبت إلى الصالون. قعدت على الكنباية المواجهة لزوج مدام لور. شبكت يديها على صدرها وصمتت.

في الصباح أتى أقرباء سعيد الشيباني من بيتهم الذي في المنطقة البعيدة من بيروت. كانوا يصعدون الدرج بطريقة لا يعرف معها إن كانوا مسرعين أم مبطئين. قريب سعيد الشيباني كان يضع يده على الدرابزين ويخطو الدرجتين قفزاً، ينطّ كأنه انتبه إلى شيء ما مفاجئ، لكن لا يلبث أن يبطئ منتظراً الذين صاروا وراءه.

عمّتي سمعت عنهم لكن لم ترهم سابقاً. هو لا يشبه سعيد الشيباني رغم أنه يرتدي ثياباً شبيهة بثيابه.

كان لسعيد الشيباني معارف كثيرون، رغم أنه في بيته وعلى الدرج لم يكن يوحي بذلك. كانوا يدخلون البيت صامتين حتى أن أحداً ممن كانوا في المطبخ لم يكن يعرف أن الصالون قد غصّ بهم.

عمّتي جعلت تكثر من الذهاب إلى الصالون كي تفرغ منافض السجائر التي سريعاً ما كانت تمتلئ. لم يكن يداخلها شك في يقينها من أنه مات لشدّة ما شرب عرقاً قبل أن ينام. كانت

الزجاجة فارغة على المجلى، وفي الغرفة حيث يرقد كان الهواء معبأً برائحة نفسه الذي تعوّدت عليه من زياراتها المتكرّرة إلى بيتهم.

كانت عمّتي تقوم بشغل البيت واستقبال الآتين بمهارة جعلت مدام لور تعتقد أنها معتادة على المناسبات المشابهة. حتى في أثناء ازدحام الضيوف لم تغفل عن نبيل وأختيه. تسألهم بين وقت وآخر إن كانوا جائعين. أعدّت لهم أكلاً ووضعته على الطاولة وأصرّت أن يأكلوا. ذهبوا معها إلى المطبخ. أكل نبيل أولاً، بلا شهية في البداية، ثم تبعته أختاه. كانوا قد بدأوا يتكلمون مع بعضهم البعض حين صرخت نبيهة الشيباني لمرأى زوجها وقد ألبسوه بدلته السوداء وحذاءه اللماع. رمى نبيل اللقمة في صحن الشاي. تركت أختاه الفنجانين على الطاولة وركضتا إلى حيث أمهما. كان ممدّداً ويداه متصالبتان على بطنه. أجهشتا في البكاء، ولم تفلح محاولات الجيران في جعلهما ترجعان إلى المطبخ أو تخرجان إلى الشرفة الكبيرة.

كل ساكني البناية أتوا إلى بيت الشيباني ما عدا الروس الذين لم ينتبه أحد لغيابهم. أم إبراهيم الكيلاني لم تمكث طويلاً. احتارت أين تجلس، وكانت، كي تخفي حيرتها، تمشي خلف عمّتي بين الغرف والمطبخ والمماشي. حين واست نبيهة الشيباني أكثرت من العبارات الفصيحة والجمل الخاصة بالمناسبة. عمّتي غمرها شعور بتآلف سكان البناية حين راحت تتخيّل وقع لهجة أم إبراهيم على أذن نبيهة الشيباني.

كان التابوت الذي أدخلوه إلى الغرفة أسود لامعاً وتحيطه قضبان معدنية ذات لون ذهبي. سرت نوبة بكاء مفاجئة حين أدخل من الباب وراحت تشتدّ وتتصاعد حين حمل الرجال الجثة ووضعوها في داخله، على القماش اللامع المنجّد البنفسجي.

قالت عمّتي إنه سقط في التابوت دفعة واحدة، ولم يصطدم حتى كوعه بالحافة.

كانت السيارة السوداء الكبيرة تنتظر عند باب البناية. وعمّتي راحت تتساءل كيف استطاع من أرسلوا أكاليل الزهور أن يجهّزوها بهذه السرعة. ظلت تأتي الأكاليل حتى بعد أن وصل آخر المغادرين إلى مدخل البناية. أطلّ التابوت من فتحة الدرج الكبيرة وهم ينزلونه. حوله نبيهة الشيباني وابنتاها. نبيل كان خلفه وقد أمسكه قريبهم من ناحية وزوج مدام لور من الناحية الأخرى.

تحرّك الناس خلف السيارة التي بدأت تمشي ببطء شديد. نبيهة الشيباني وبناتها في المقدّمة بثيابهم السوداء. نبيل كان يبكي فيما هو ينظر إلى نقطة ثابتة في مؤخرة السيارة الكبيرة. زوج عمّتي كان معهم أيضاً، وقبل أن تنعطف السيارة إلى الشارع الذي على اليمين نظر إلى شرفة بيته كي يرى إن كانت عمّتي تراه بين المشيّعين. وجدها على الشرفة، وماتيلد أيضاً كانت على شرفتها، وأم إبراهيم الكيلاني كانت مع ابنتها النحيلة وابنها على شرفتهم في الطابق الثاني.

حيطان الدرج ودرابزينه الأسود، وكذلك أبواب البيوت والمناور الكبيرة، لا توحي بالانطباع الذي تعطيه البناية لمن يشاهدها من الخارج، من تلك النقطة في الحديقة. الباب الأخضر السميك في بيت عمتي، الذي يفصل بين المطبخ والشرفة الكبيرة، متشقّق من أسفله، وطبقات الدهان الكثيرة جعلته عصياً على الانغلاق. قلت إنني حين أنظر إلى واجهة البناية من تلك النقطة في الحديقة فإنني لا أرى إلا خطّي الزاويتين الكبيرين، ولا أرى من الشرفات إلا توازيها. من ذلك البعد لا تظهر الفروقات في الطلاء الأصفر بين موضع وآخر، ولا الكسور التي في أسفل شرفة بيت الكيلاني. من تلك المسافة تبدو البناية كما ظهرت في صورتها النهائية لمهندسها. خطوط مستقيمة وألوان، وشرفات ونوافذ كأنها على الورق.

من الداخل كانت البناية على خلاف ما تظهر من الحديقة، لا سيما في الطابقين الأولين حيث تنمّ أعالي الحيطان قرب السقوف عن عدد المرات التي طلي بها المدخل والطوابق. في بقعة عالية

كانت طبقة من القشور المفتتة تظهر طبقات الألوان العديدة التي تعاقبت على الحائط.

حين ذهبتُ في زيارة ثانية لعمتي رأيت أن الأغطية الزجاجية الملونة قد سقطت عن كل المصابيح الكهربائية التي فوق الأبواب، ما عدا بابي ماتيلد ومدام لور. كانت الأغطية متموّجة كأنها حيكت من قماش، وفي وسطها دائرة زهرية محاطة بخطين أزرقين. عمتي وضعت فوق بابها ضوءاً كان، حين تشعله، ينشر النور على طابقها والطابق الأسفل، وعلى أطراف الطوابق المحاذية للفتحة التي بين الأدراج.

هذه المرة أيضاً لم أرَ أحداً من الساكنين على الدرج. الأبواب مقفلة كما في المرّة الماضية. وفي الطابق الرابع، أمام بيت الشيباني، استعدتُ الجلبة التي أحدثها الناس حين أنزل التابوت الأسود. حدست إن موت سعيد الشيباني جعل حركة الساكنين أقل مما كانت.

اليقين الذي كان خاصاً بعمتي حول موته جعلته مشتركاً بينها وبين مدام لور التي لم تتوقّف عن زيارتها. لقد مات لكثرة ما شرب من العرق في ليلة وفاته. لم يكن يشكو من شيء، وربما كان قد عمّر طويلاً لولا إدمانه الذي لم يبذل جهداً في مقاومته.

مدام لور نقلت ذلك إلى ماتيلد، وعمتي، حين تحادثت مع أم إبراهيم الكيلاني على الدرج، قالت كلاماً فصيحاً حول المحرّم والبلايا والخمرة.

يقين عمتي سرى في البناية. حتى نبيهة الشيباني ركنت إليه رغم أنها قالت، صبيحة وفاته، إنه لم يشرب أكثر من المعتاد لأنه نام باكراً. سرى اليقين في بيوت البناية، وحين سمعته أم إبراهيم للمرة الثانية أضاء خدّا سعيد الشيباني بالحمرة المبالغة التي كانت تضربهما.

صارت مدام لور، بعد أن يغادر زوجها البيت إلى محله، تنجز عملها وتسرع إلى بيت عمتي. ماتيلد ذهبت إليها مرتين ولم تجدها. عرفت أنها كانت عند عمتي لكن شيئاً منعها من الصعود إلى الطابق الخامس.

خدّا سعيد الشيباني الأحمران يشبهان خدّي ماتيلد. لقد أخّرت مدام خيّاط مجيئها من الجبل هذه المرة. في الفترات الأخيرة باتت لا تنزل إلى بيروت إلا مصحوبة بعائلة ابنتها. يدخلون إلى البيت، ينفضون الغبار عن الطاولات والكراسي والخزائن وينامون ليلة أو ليلتين، ثم يرجعون بعدها إلى الجبل.

حتى في اليومين اللذين تقضيهما في البيت لم تكن تفارق الأولاد. لا تراها ماتيلد إلا قليلاً. تجلس عندها في غرفة الجلوس والصغار يملأون المكان ضجيجاً وصراخاً. يمنعها الأولاد من الاسترسال في صمتها ومن المحافظة على المدة القصيرة بين الكلمة والأخرى. تقوم. توصلها مدام خيّاط إلى البيت وتنتظرها حتى ينقفل بابها وتسمع خطواتها تبتعد في الممشى.

قالت عمتي إن نبيهة الشيباني عرفت لماذا كان يناديها زوجها بصوته المخنوق الخافت. كان متأكداً من حتفه. بذل جهداً كبيراً من أجل إيقاظها، ولم تسمع، رغم أن سريرها يكاد يكون ملاصقاً لسريره.

كان يغالب لحظاته الأخيرة ليخبرها أين يضع أمواله. أخبرتها نبيهة الشيباني انها حين كانت تهتز وتبتعد باتجاه غرفتي الأولاد كان يلتفت برأسه ويشير إليها بيده أن تأتي.

كانت حركة خفيفة من يده، لكن لم يستطع غيرها. ضاعت نبيهة الشيباني. لم تعرف ماذا تفعل. ومات زوجها وفي قلبه غصة من لم يستطع أن يقول لزوجته كلمته الأخيرة.

قالت عمتي إنها لا تستبعد أن يكونوا محتاجين إلى ما ينفقونه

على أكلهم ومصاريفهم. وقالت أيضاً إنها لا تستبعد أن تكون إقامتهم في بيت أقربائهم قد طالت بسبب ذلك.

طال بقاء نبيهة الشيباني وأولادها في بيت أقربائهم. قالت مدام لور إنها سمعت أن ابنتهم الكبيرة كاتيا تزوجت من جار لهم هناك. تزوجت قبل أن تنتهي مهلة الحداد، وسكنت مع من تزوّجته في بيت غير بعيد عن بيت أقربائهم.

حين تقف مدام لور على شرفتها الخلفية وتنظر إلى الأسفل، تنقّل بصرها بين البلحات وبيت الناطور وقاع البركة الفارغة. لم تعد تذكر من الناطور الذي غادر بعد مجيئها بفترة قصيرة إلاّ ملامح من وجهه ومشهد رأسه الحليق. قبل أن يغادر راح الساكنون يتساءلون عن المهمات التي يقوم بها للبناية. لم يكن يفعل شيئاً سوى الاحتفاظ بمفتاح السطح وانتظار قطاف البلح. قبيل مغادرته بأيام كان الساكنون يشاهدونه خارجاً في الصباح، حاملاً على كتفه حبل الحمّالين ولا يعود إلاّ في المساء.

ما زالت مدام لور تذكر الحديقة التي أقامها الناطور أمام بيته. كانت التنكات الكبيرة والصغيرة موزعة على مساحة تفوق مساحة البيت. وضع ورداً وخضاراً وحتى أشجاراً في التنك. تذْكُرُ مدام لور اليباس البطيء الذي أخذ يدبّ في الزريعة بعد رحيل الناطور. ومع الوقت، لم يبق إلاّ عرق صبير وجذع شجرة صغير كانت تنبت عليه الزهور في بعض الأيام من السنة.

مشهد البيت المتداعي اختلف كثيراً. زالت الحدود بين الحديقة

وقطعة الأرض الواسعة. لم يبق أثر لعرق الصبير ولجذع الشجرة الصغير، حتى أنّ التنكات بدت مهترئة في الرمل. لم يبق شيء يذكّر بالحديقة، رغم أن مدام لور ما زالت تستطيع، ودون جهد كبير، أن تعيد رسم الخطوط التي تفصل الحديقة عن قطعة الأرض الكبيرة.

كان يعينها في ذلك بيت الناطور، الذي كانت، انطلاقاً من طرفيه، ترسم الخطوط الوهمية لحدود الحديقة. كان البيت، بعد أن أُهمل طيلة تلك السنوات، يبدو كأنه غاص قليلاً في الرمل. لم تكن تتخيل أن أحداً يستطيع الدخول إليه لأنها تحسب أنّ وطأة قدم واحدة في داخله ستجعل سطحه يهوي إلى الأرض.

كانت مواده من ذلك النوع المؤقت. ألواح زنكية وأخشاب وقماشة كبيرة أُخذت من خيمة عتيقة. كان من بنى البيت، كي يحافظ على ثبات مواد السطح، قد وضع أحجاراً عند الزوايا وفي الوسط.

حين شاهدَتْ مدام لور الأولاد في قطعة الأرض ظنّت أنهم أتوا من الطريق وتسلقوا الباب الحديدي المقفل، لكن، لفت نظرها باب البيت المفتوح. خرج منه الرجل الخمسيني، انحنى، وأمسك أسفله بكلتا يديه وأخذ يشده إلى الأعلى كي يجعله مستوياً. حين انغلق، أقفله الرجل بقفل كان معه. مشى وتبعه الأولاد. وهرعت مدام لور خفيفة مسرعة إلى عمتي.

في الأيام التي تلت أَخَذَ الرجل يصلح البيت بنفسه. عاونه في ذلك أولاده الذين كانوا يناولونه الحجارة وألواح الخشب كي يضعها على السطح. حين أصبح البيت جاهزاً للسكن أخذ الرجل يُدخل إليه أثاثه القديم. بدت زوجته قوية وهي تحمل درفة الخزانة وتنزل عن رأسها الطاولة المصنوعة من خشب سميك.

حين راح الجيران يتداولون بما كانوا يرونه استعملوا صيغة

"الجيران الجدد" . تصعد مدام لور إلى شرفة عمتي لتراقبا معاً حركة الرجل وأولاده وهم متحلّقون حول البيت .

كان كأنه ساكن حقيقي . ومدام لور قالت إنه يتصرف كساكن قديم في البناية . في كل عشيّة كان يأتيه الضيوف من حي المنلا القريب . يجلسون على كراس صغيرة وتدور بينهم أحاديث لا يقطعها إلا هبوط الليل ، فيذهبون بعد أن يكون الرجل قد أضاء المسافة التي كانوا يشغلونها بضوء ساطع .

مدام لور كانت تندهش من عدد المقيمين في البيت الصغير . حين ترى الأحذية المكومة أمام الباب تخالهم ينامون حتى في المطبخ والحمام . لم يكونوا وحدهم في البيت ، إذ غالباً ما كان يخرج في الصباح رجال لم ترهم سابقاً . كأنهم أتواليناموا ليلة واحدة يرحلون بعدها إلى غير رجعة .

لم يكن أحد من العائلة ينظر إلى أعلى حيث الشرفات الكبيرة والأولاد . حين يلعبون في قطعة الأرض كانوا يديرون وجوههم إلى الجهة الأخرى حيث السور الحجري الذي يفصل البناية عن حي المنلا . قالت مدام لور لعمتي إنهم إن أداروا رؤوسهم باتجاه البناية يحرصون على أن يبقوها منخفضة ، وإذا أراد أحدهم أن ينظر إلى شيء في الأعلى فإنه يرفع عينيه وحدهما ويُبْقي رأسه ثابتاً في مكانه .

الرجال حين يقعدون في العشية يكرّرون ما كانوا يفعلونه في اليوم السابق . الدائرة التي يرسمونها بكراسيهم الصغيرة كانت مضطربة شبه فارغة من جهة القاعدين بمواجهة البناية . قالت مدام لور إنهم قريبون جداً من بيت الروس الذي تقع شرفته الخلفية مباشرة فوق قطعة الأرض . وقالت أيضاً إنهم سيُجْفلون المرأة العجوز حين تذهب إلى مطبخها الذي صار مكشوفاً لهم . قالت مدام لور ذلك ، ولم تعرف أن الروس أغلقوا الباب الخشبي الذي

يكشفهم على الخارج. أما الشباك فكانوا قلما يفتحونه. أقفلته الروسية منذ مدة طويلة حتى أنها ربما انشغلت بسماع الأصوات وتقدير أصحابها لمدة طويلة قبل أن تعرف أنهم ساكنون جدد.

لقد ملأوا المساحة الخالية بالحركة من أول النهار إلى آخره. في النهار، كانت المرأة القوية تقوم بأعمال بيتها في الخارج. تضع رأس الغاز الكبير قريباً من الباب بينما تُبقي القارورة في الداخل. تمسك عصاً خشبية وتقلب الغسيل الذي يغلي في البرميل. وبعد الظهر، حين تنتهي من غسيلها، يرى الساكنون من شرفاتهم أي غسلة كبيرة أنجزتها وذلك من الثياب التي لم تتّسع لها أطراف البركة والحائط الطويل.

عمتي ومدام لور راحتا تخمّنان المبلغ الذي جعل صاحب الملك يؤجّرهم بيت الناطور. هو شحاذ، قالت عمتي. وقالت أيضاً إنها لا تستبعد أن يؤجر الفسحة الفارغة التي في أعلى الدرج.

في فترة لاحقة راحت مدام لور تشاهد أمّ إبراهيم الكيلاني تتبادل كلاماً مع المرأة المنهمكة بأشغالها. أخذت الحوارات تزداد بينهما مع الوقت حتى أن أمّ إبراهيم لم تعد تغادر الشرفة إلاّ بعد أن ترمي كلمات على جارتها. حدست مدام لور أن العلاقة بينهما ستقوى... لكن عن بُعد، ولن تتبادلا الزيارات في البيوت.

حين رجعت نبيهة الشيباني من بيت أقرباء زوجها كانت قد نحلت إلى درجة أن العرْقين اللذين في طرفي رقبتها كانا ينفران حتى من دون أن تتكلّمَ. لم تستطع مدام لور أن تعيد الكلام معها إلى سابق عهده، وعمتي كانت كأنها تزور جارة جديدة.

حين دخلت سامية إلى الغرفة أيقنت عمتي أنهم يشكون من متاعب حقيقية. كانت أزرار كنزتها الصوفية السوداء مغلقة، والجوارب الشفافة كانت متموجة متهدلة وأوحت أنها قد نحلت هي الأخرى.

حسبتا أن نبيهة الشيباني لن ترجع إلى طبيعتها إلاّ حين تخرج من بيتها. صعدت إلى بيت عمتي التي راحت تتدفق بالكلام بمجرد أن انفتح الباب ووضعت نبيهة الشيباني قدمها في المدخل. جلسن في غرفة الجلوس واستدرجتاها، عمّتي ومدام لور، إلى الكلام عن بيت أقرباء زوجها وعن زوج ابنتها وابنها نبيل الذي نفد صبره ولم يعد يطيق القعود هناك.

حين راحت تتكلم عن المتاعب المالية لم تكن محرَجَةً. قالت

إنها لا تستطيع أن تؤمن لنبيل طلباته التي تكاثرت. تتكلم بلا حرج، كأن المسألة لا تتعدى نفاد السيولة، أو انتظار المصرف حتى يفتح أبوابه.

لكنها كانت تعطي أرقاماً تقريبية للثروة التي تركها زوجها، تزداد مع الوقت يوماً بعد يوم. وحين ذهبت سامية كي تعلّم في المدرسة الخاصة صار الرقم متجاوزاً كل حد. تنزل سامية مبكرة على الدرج وفي يدها حقيبتها المنتفخة من السندويشات والكتابين الصغيرين. ترجع إلى البيت في المساء أو قبله بقليل، وفي السهرة تشترك مع عمتي ومدام لور في الحديث عن البناية والجيران.

عمتي لا تعرف إن كانت سامية جميلة. حين تنظر إلى شعرها الاشقر المسبل تتذكر السهرات الماضية حين كانت تخرج من غرفتها وتطلّ عليهن وهن جالسات. لكن حين تضحك تلاحظ عمتي لثتها العالية المائلة إلى الزرقة فتوقن أنها غير مرغوبة من الرجال. وحين تقف في الضوء تظهر بشرتها التي راحت تنشف مع الوقت لدرجة أن عمتي تحسب، حين تراها، أنها لو مسحت خدها براحة يدها لتساقطت منها القشرة الخفيفة اليابسة.

نبيهة الشيباني لم يزايلها اعتقادها بالثروة القادمة. كانت تحسب أن عمل سامية وبقاء نبيل في البيت مؤقتان وسيزولان بمجرد أن تأتيه الرسالة من المحامي المقيم خارج البلاد. لكن، وفيما هي دائمة الكلام عن تأخّر المحامي، راحت تبدي اهتماماً مبالغاً بكل ما تدخله عمتي إلى بيتها. تبدي ملاحظات كثيرة حول ثوب أو أكلة أو حذاء جديد. عمتي قالت لمدام لور أن الخضار تذبل بمجرد ان تدخل بيت الشيباني وأن أكلهم يبدو كأنه لم يزل في الصحون من أيام.

نبيل صار يحب الأكل الذي يطبخه المطعم الذي في أول حيّ المنلا. يأتي الصبي حاملاً الصينية على كفه. يأخذها نبيل منه

ويعطيه بدلاً منها صينية البارحة .

لم تقل له أمه شيئاً حول مكوثه في البيت . تقول لعمتي إنه لم يعد يرغب في الخروج مع رفاقه الذين يعرفهم منذ الصغر . قبع في البيت ، وحين تنفد الأوراق السميكة التي يرسم عليها تخطيطات لبنايات مشرفة على البحر تذهب أمه لتحضر له أوراقاً جديدة من المكتبة التي تقع في الطرف الآخر من الحديقة .

نبيهة الشيباني راحت تنسى الكلام عن الثروة بالتدريج . رفع صاحب المطعم صوته أمام الباب وقال إنه لن يحتمل تأجيلاً آخر . سمعه بعض من في البناية . وفي صباح اليوم التالي صعد سائق الشاحنة الصغيرة ومعه الحمّال إلى بيتهم . سمعت عمتي جلبة فأطلت من الدرابزين . كان اللون الأسود للبيانو ما زال لماعاً وجديداً وقد أظهر السائق والحمّال حذراً شديداً فيما هما يقطعان به أول الدرجات .

كانت كاتيا تتذكره مرات قليلة في السنة فتجلس على كرسيه المستديرة وترفع غطاءه الذي يلمع . تضرب أصابعها عليه فتعلو النغمات كأنها تأتي من أكثر من بيت واحد .

في الأيام التي تلت بيع البيانو راح نبيل يخرج من البيت ، أولاً الى المكتبة القريبة ، ثم إلى أماكن أبعد ، حتى إنه ، بعد تعوّده على الخروج ، صار لا يأتي إلى البيت إلا في آخر النهار . كان ينزل على الدرج متمهلاً رافعاً رأسه إلى أعلى وأصابعه تداعب حمّالة مفاتيح بما يوحي بأنه ذاهب إلى سيارته أمام المدخل . قالت مدام لور أنه سيسافر قريباً إلى سويسرا حيث سيقابل المحامي .

وحين أنزل الحمّال السجادتين العجميتين اللتين كانتا في الصالون كان نبيل واقفاً أمام الباب يتبادل حواراً صامتاً مع الرجل الذي أتى الحمال معه . كان ، بوقفته المستقيمة ورأسه المرفوع ، يوحي بأنه يجري بعض التجميل على أثاث البيت . بدا عليه

الانهماك من الشغل الذي لم يعرفه أحد. مبكراً كان ينزل على الدرج، وحين يرجع إلى البيت في النهار، فإنما لدقائق قليلة، كأنه أتى ليحضر شيئاً نسيه في غرفته.

كان صالون بيت الشيباني قد أصبح فارغاً من الأثاث في الأيام التي سبقت رحيل نبيل إلى سويسرا. أتته الرسالة، قال. بعدها راح يكرر وقوفه أمام المرآة، يخطو أمامها أو ينظر إلى نفسه جانبياً، ويقوم بحركة النزول كأنه هابط على درج الطائرة.

حركاته صارت أكثر اعتداداً وزهواً كلما نزل من باب بيته إلى الطريق. ينزل مبطئاً رافعاً صدره إلى أعلى ومداعباً حمّالة المفاتيح بما يوحي بأن السيارة اقتربت أكثر من مدخل البناية. كانت ثيابه بيضاء بكاملها حين لم يلق التحية على مدام لور، وحذاؤه كان كحلياً لماعاً. قالت لها نبيهة الشيباني انه ربما لم ينتبه لها أو ربما شغله التفكير بترتيبات السفرة التي باتت وشيكة.

عمتي استأثر بها الفضول ولم تنتبه كثيراً لتصرفاته. لذلك لم تلقَ مدام لور عندها أذناً صاغية حين راحت تحكي عن غرور الولد وعدم اكتراث أمه. عمتي قضت الأيام السابقة على سفره ملتصقة بالعائلة كلها. كانت كأنها تترقّب معهم هبوط الثروة الخرافية على البيت. تسأل عنها نبيهة الشيباني فتجيبها، فتسألها مرة ثانية. تكرّران السؤال نفسه والجواب نفسه، كأن بينهما تواطؤاً على تحريك خيالات الثروة الآتية.

سامية تعوّدت على المدرسة حتى أنها لم تكترث كثيراً لفراغ البيت من أثاثه، ولم تشارك في الجلبة المتصاعدة حول الثروة. كانت تحب المدرسة، وأمها فسّرت عزوفها عن الاهتمام بسفر نبيل بشكّها في كل ما يقوله ويفعله. لم تقل شيئاً، وحافظت على تقاليدها الصغيرة التي بدأتها منذ بداية عملها في المدرسة. تحمل محفظتها المنتفخة من الكتابين والسندويشات. تخرج مبكرة

وتعود إلى البيت في وقت متأخر.

عمتي فكرت أن إصرارها على الغياب يعود إلى أنها أقامت علاقات صامتة مع رجال كثيرين. استنتجت ذلك من فيلم عربي شاهدته في فترة ماضية. كانت تعتقد، تبعاً لما رأت في الفيلم، أن البنات غير الجميلات سريعات الاستسلام للعلاقات السريعة العابرة.

كانت على يقين أن سامية لن تتزوج، بل أن سامية نفسها كان ينتابها شعور مماثل إذ راحت تتكلم أمام عمتي عن البنات اللواتي يعبرن الشارع أو يذهبن إلى الحديقة كما لو أنها رجل معجب بالبنات الصغيرات السن. لم يخل كلامها من اعتراف بأنها كبرت قليلاً، وأنها أقل جمالاً مما يجب.

ولم تتدخل في ما كان يعدّ نبيل وأمه من ترتيبات للسفر. وحين أتت أختها كاتيا لم تشاركها الكلام عن الثروة الآتية. سألتها عن أشياء أخرى، عن بيتها وزوجها وإن كانت تعاني من متاعب الحمل. كانت ساقا كاتيا قد أصبحتا أكثر بياضاً، وبطنها ارتفع قليلاً وهي لم تكف عن الكلام بصوتها الرفيع منذ أن دخلت مع زوجها إلى البيت.

حين سافر نبيل أرسل برقية فور وصوله، أعقبها بواحدة أخرى بعد مقابلة المحامي، وثالثة أعلمهم فيها برجوعه في وقت حدّده. لم يمكث طويلاً في سويسرا، رغم أنه كان محمّلاً بالهدايا عند رجوعه. هدايا عديدة مختلفة النوع والحجم جعلت أمه تظنّ، حين فتحت الشنط، إنه قضى وقت إقامته متنقلاً متردداً بين المحلات.

النصيب الأكبر كان للمرأة التي لم يفصح عنها نبيل. قال لأخته إنها مطلقة ولم تمكث مع زوجها إلا أشهراً قليلة. عمتي راحت تسمّي الفرو الذي أتى به للمرأة باسمه الأجنبي الصعب.

قالت إن ثمنه يساوي ثمن سيارة جديدة، هذا عدا الفساتين الكثيرة والعطورات الغالية.

على الدرج لم يغيّر عادته في إعلاء رأسه وهبوطه البطيء بين الطوابق. في يده علاّقة المفاتيح لكن السيارة كانت عند المدخل هذه المرة، بيضاء فارهة، وجلد مقاعدها أحمر. حين أدار محرّكها ومشى بها أيقن الجيران الذين رأوه انه سيصطدم بالحائط عند المفرق الذي في آخر الحديقة.

عمتي لم تكن تقدّر أن ثروة سعيد الشيباني كبيرة إلى هذا الحد. لم يخرج نبيل مرتين في البدلة الواحدة، وأمه، مع انها لم تغيّر كثيراً في أوضاع حياتها، كانت تتكلم أمام عمتي ومدام لور عن الأثاث الخيالي الذي نوت أن تضعه في الصالون وغرف النوم. رجعت إلى عادتها في الوقوف وسط الغرفة وتحريك إصبعها بين الجهات.

غيّرت رأيها مرات في طريقة تأثيث الصالون. تقف بين عمتي ومدام لور على بلاطه العاري وتروح، في كل مرة، تقترح توزيعاً جديداً للأثاث الذي ستوصي عليه. لن تشتري بيانو جديداً، وإذا رغبت كاتيا بدلك فسترسله لها الى بيتها.

نبيهة الشيباني انتابتها رغبة جامحة في أن يلتمّ شمل العائلة. حرصت أن يبقوا قريبين واحدهم من الآخر وحاولت مع كاتيا أن تقضي نهاراتها كلها معهم في البيت. انتابتها رغبة في وحدة الشمل، لذلك، حين أتى نبيل بالمرأة المطلقة لم تبد تحفظاً كما كانت عمتي قد توقعت. بل راحت توليها اهتماماً خاصاً موحية لها بأنها أكثر من ضيفة عابرة.

كانت تحكي بلهجة بلدها المجاور فتنفرج أسارير نبيهة الشيباني عندما تسمعها تلفظ مخارج الحروف. لكنها لم تنس زواجها السابق. كانت، حين ينغلق الباب عليها وعلى نبيل تتخيلهما وقد

تعانقا دون مقدمات، وحين تتركهما في البيت وتصعد إلى بيت عمتي تعرف أنهما سيبلغان السرير قبل أن تطأ قدمها الدرجة الأولى.

سامية كانت ترتاح لها. بل إنها كانت كثيراً ما تختلي بها وتروحان في أحاديث لا تنتهي. تحبّ سامية أن تلعب دور أخت الزوج الودودة رغم أنها قلّما تتكلم مع أخيها، وأيضاً، لم تعد تبدي ذلك العطف نحو أمها. صارت أكثر ابتعاداً عن البيت، والضجة التي أحدثها الوضع الجديد كانت تتعالى من حولها دون أن تبدي اكتراثاً بها. كأنها من عائلة أخرى.

الفصل الثالث

لم تكن ماتيلد لتصغي إليه لولا خوفها من خبط أقدام كانت تسمعها على الدرج ولولا أصوات تحسبها تأتي من الغرف. في الفترة الأخيرة، وهي في سريرها، ما عادت تستطيع احتواء الغرف البعيدة. كانت كأنها بيوت فارغة مقفلة. المطبخ والشرفة الخلفية الكبيرة... الممشى المتطاول من الباب... غرفة النوم المجاورة... الظلام الذي في زوايا الصالون حين يهبط الليل... كانت لا تجد عزاء في مدام خيّاط التي باتت تكثر من المكوث في البيت خوفاً من احتلاله. عادت لتحرس البيت لا لتعيش فيه، وكانت دائماً على وشك أن ترحل. جهّزت حقائبها وأغلقت غرف النوم بينما غطت أثاث الصالون بشراشف بيضاء كثيرة.

ما كانت ماتيلد لتفتح له الباب لولا القذائف التي تعبر من فوق البناية وترتطم بالبنايات المجاورة. حين يشتد القصف تترك غرفة نومها إلى الممشى الصغير الذي يفصل بين الحمام الفرنجي وغرف النوم. كانت قد تحسّبت لذلك بأن وضعت كرسياً بمحاذاة الحائط الصلب وضوءاً غازياً كانت تنيره بمجرد أن تجلس على الكرسي.

حين تعوّدت على القصف صارت تذهب إلى الكرسي غير متعجّلة ولا متمهّلة، بطبيعية، كأنها ذاهبة لإنجاز عمل ما. تجلس بعد أن تحكم إلصاق الكرسي بالزاوية، وبعد وقت تستفيق فتعرف أن القصف توقّف ولم يدم طويلاً.

لم تخرجها مدام خيّاط من عزلتها، ولا الجيران الآخرون. في أوقات فزعها كانت تحسب البيوت وكأنها ليست في بناية واحدة. بيت مدام لور منقطع عما تحته وما فوقه، وبيت عمتي، العالي، المعرّض للقصف، كأنه سطح عار لبناية أخرى. في الممشى الضيّق، وهي على الكرسي، تخطر في بالها الروسية المختبئة في بيتها بالطابق الأرضي. كثيراً ما تفكر بها وتتخيلها وقد حشرت جسمها الصغير في زاوية من الزوايا، مديرة وجهها إلى الحائط وغير ملتفتة إلى زوجها المختبئ في مكان آخر من البيت.

آخرون في البناية لا تعرفهم. العروسان اللذان سكنا في بيت الشيباني لم يفارقهما زهوهما باتساع الغرف والمشاهد التي تُرى من الشرفات. البيت الملاصق لبيت الروس في الطابق الأرضي شغله مهجرون التجأوا إليه بعد ساعات من قصف متواصل. ماتيلد تشعر بالحرج حين تمر أمام بابهم الذي يبقى مفتوحاً. كان الرجل طويلاً نحيلاً ولا يكترث لمرورها أمام الباب.

أدار وجهه وفمه إلى الداخل وأعلى صوته كي تسمع زوجته. كان واقفاً على الباب متردداً بين الدخول والخروج. ردّت زوجته من أقصى البيت فوصل إليها الصوت مضخماً أجوف لعبوره بين الغرف الفارغة.

في البداية ظنت ماتيلد أنهم هم الذين احتلوا المصبغة الملاصقة لحائط البناية. تعوّدت على أن تقول مصبغة عن المحل بسبب من اليافطة المستديرة المعلّقة فوق بابه. كانت المصبغة فارغة منذ وقت طويل وحين أتى من احتلّوها لم يأخذوها من أحد. وجدوها

فارغة فأحضروا عدّة العمل وبدأت تتجمع السيارات الخربة على الرصيف أمامها. كانت ماتيلد حين تنظر إلى الطريق ترى أن الزيت الأسود الكثيف الذي تجمّع عليها لن يزول. دخل الزيت في البلاطات وفي سور الحديقة ومدخل البناية.

ماتيلد اعتقدت أنهم احتلوا البيت والمصبغة، لأنها، حين كانت ترمي نظرة عابرة عن الشرفة، تجد الرجل المهجّر واقفاً على باب المحل يدخن، أو جالساً على كرسي صغيرة. متأخرة عرفت أن من أخذوا المصبغة ناس آخرون، وأنهم هم من أتى بالذين شغلوا المحلات المتلاصقة على طول الرصيف.

في النهار كانت أصوات الطرق على حديد السيارات تصل إلى زوايا البيت كلها. ماتيلد لم تستطع أن تتعوّد على الأصوات لذلك راحت تقضي وقتها منتظرة الساعة المتأخرة من بعد الظهر حين يتوقف الطرق وتقفل المحلات. تخرج ماتيلد إلى نسمة الغروب الهادئة على الشرفة. تنظر إلى الأسفل، فتلتمع بقع الزيت السوداء. ترجع إلى الداخل، وقد ملأت أنفها رائحة ثمر الكينا المختلط بالزيوت السائلة الساخنة من حرارة الشمس.

لم تكن تعرف لماذا يصعد المهجرون من الطابق الأرضي إلى الطوابق العليا. تراهم طالعين نازلين على الدرج كأن لهم أقرباء في البيوت أو كأنهم يحبّون أن ينظروا إلى الشارع من مكان عال.

ساكنو البيت الجدد، أخذوا يصبحون سكاناً أصليين، يمرّ زوّج عمّتي فيلقي عليهم التحية ويتبادل كلاماً مع الرجل. أدخلوا أسرّة إلى البيت، وفي وقت ما من أوائل الصيف أدخلوا براداً قديماً. كان بيتهم يتكوّن بالتدريج حتى أنهم راحوا بعد فترة يقفلون الباب. صاروا سكاناً أصليين، وحين ينفتح بابهم على أحد تروح المرأة تلقي عليه تحيات ودودة وتدعوه إلى الدخول.

ما كانت ماتيلد لتصغي إلى ما كان يقوله لولا خوفها من

الليل. كان أسمر نحيلاً وشعره خفيف حتى أن جلدة رأسه البيضاء كانت تظهر من جنبي رأسه ومن فوق رقبته. حين بدا عليها أنها ستقفل الباب رجاها أن تنتظر قليلاً ريثما يتكلم. قال لها إنه يرغب أن تؤجّره غرفة واحدة، مستقلة وقريبة من الباب.

حين قال إن موقع البناية يلائمه لأنه قريب من الجامعة حدّقت ماتيلد بالكتاب السميك الذي في يده. بدأ كلامه يصير أهدأ وراح يرتاح في اختيار الكلمات. أدخلته من الباب وأجلسته في الصالون. كانت كلماته تصبح أكثر دقّة كلما رقّ صوته، وبينما كانت ماتيلد تفكر في ما كان يقول راحت ترسم في خيالها فواصل بين الغرف. تُسكنه في غرفة وتغلقها ثم تحسب مدى قربها عن مكان نومها وعن المطبخ.

حين أتته بالقهوة كان يحاول أن يحدّد مواضع الغرف وأبوابها. سألته عن أهله وعن ضيعته. رأى أنها اهتدت إلى أي غرفة ستؤجره من ذهاب يدها إلى اتجاه واحد كلّما تكلمت عن صعوبة تقسيم البيت واتساعه لرجل لا تعرفه. ماتيلد كانت تستطيع أن ترى في لهجته ما يجمعه بأولئك الذين دخلوا البناية والشارع في خلال الحرب، لكنه كان متعلماً. نوع آخر من المتعلمين لم تعرفه من قبل. في كلامه حكمة الكبار وهدوؤهم، وفي وجهه بعض الملامح الشائخة التي تظهره شبيهاً بكبار السن الذين يأتون من منطقته.

بيت الشيباني غادروا بعد رجوع نبيل من سويسرا بأشهر قليلة. كانت قد تراكمت عليهم الديون إلى حد أن نبيل أخذ زوجته المطلقة وطار بها إلى مكان لم تفصح عنه أمه. صاحب المطعم واللحام وصاحب الدكان القريب راحوا يطالبون بالديون دفعة واحدة. وحين أتى المندوبان اللذان أرسلتهما الحكومة ليدوّنا محتويات البيت لم يجدا فيه شيئاً يذكر. صاحب الملك أتى بعدهما مباشرة، قال إنه لن يجبرهم على إخلاء البيت. سيفاوضهم على ذلك، خصوصاً وأنهم من سكان البناية الأوائل.

نبيهة الشيباني وابنتها رحلتا بالتدريج. كانت عمتي قد حسبت أنهما قامتا بمجاملات الوداع النهائية قبل أن ترجعا في اليوم التالي. قالت نبيهة الشيباني إنها أتت لتأخذ شيئاً من المتاع القليل الذي تركته في البيت. جاءتا بعد يومين على ذلك. تودّعان ثم ترجعان. وقد تعوّد الساكنون على ذلك حتى أن مدام لور صارت تقول لعمتي، حين يصعب عليها تذكر حادثة ما، إنها ستسأل

نبيهة الشيباني حين ترجع في الغد. ظلتا تأتيان. وماتيلد، حين تراهما صاعدتين على الدرج لم تعد تلقي عليهما التحيات الكثيرة.

لكنهما حين انقطعتا فلمرة واحدة. عمتي ومدام لور قالتا ان نبيهة الشيباني كانت تأتي إليهما لأنها لم تكن تجد مكاناً تقيم فيه. ذهبتا إلى غير عودة، وعمتي راحت تتخيلهما واقفتين على الرصيف في منطقة بعيدة من بيروت بمواجهة بناية قيد البناء. تنتظران، وتحدقان في البناية التي لا يجهد البناؤون حتى ينتهون منها. هكذا تتخيّلهما، لكن لا تعرف كيف تضعهما في واحد من البيوت أو كيف تنتقل بهما إلى بناية أخرى.

لم يسعفها خيالها في ذلك، لذلك أبقتهما على الرصيف. وحين بدأت الحرب راحت تقدّر أن المنطقة التي اندلعت فيها الرصاصات الأولى لم تكن بعيدة من حيث وقفتا. ولأنها لم تستطع أن تنقلهما قبيل اندلاع الحرب راحت تحسب أن جولات ومعارك كثيرة حدثت وهما واقفتان في موضعهما. تمر الرصاصات من فوقهما ومن حولهما وهما وكأنهما لا تسمعان شيئاً.

مدام لور المحبة للنهايات السعيدة جعلت تقول إن نبيل أخذهما إلى البلد الذي سافر إليه. كانت تغبطهما على ذلك. وتقول إن بيتهما سيبقى فارغاً حتى تعودان إليه.

لم تستطع أن تتخيّله مسكوناً من آخرين. وحين رأت رجالاً صاعدين على الدرج وقدّرت أنهم أتوا لاحتلاله هرعت إلى عمتي وهي ترتجف وتطلق كلمات بلا ضابط ولا نظام.

عمتي منعت الرجال من خلع الباب. حتى أنها منعتهم من صعود الدرجات المبتقية إليه. كانت عنيفة وقوية. لم تتكلم كثيراً. قالت كلمات قليلة لكن جازمة. نزلوا، وصعدت هي إلى

بيتها هادئة واثقة كأنها لم تقم بعمل أذهل مدام لور وجعل ماتيلد ومدام خيّاط تأتيان لزيارتها في أول السهرة.

حافظت على بيت الشيباني، وحين عرف صاحب الملك بالحادثة أرسل لها مفتاحه كي تضع فيه أغراضاً وتتردّد عليه من وقت لآخر. أعجبها أن تبدو هكذا أمام الساكنين لذلك راحت تُظهر اهتماماً فائقاً بالبيت. تنزل إليه مرات كثيرة في النهار الواحد، وأحياناً تنزل تتفقّده في الليل. تفتح الباب بالمفتاح. تدخل. تتجوّل بين الغرف. تقف قليلاً على واحدة من الشرفتين الصغيرتين وقليلاً على الشرفة الكبيرة. وقبل أن تعود إلى البيت، لا تنسى أن ترن جرس مدام لور كي تبادلها كلمات سريعة تصعد على إثرها الدرجات.

أبدت اهتماماً فائقاً ببيت الشيباني. وبعد مدة، راحت تتكلم عنه بصفتها صاحبة القرار في تأجيره. إن لم يعجبها المستأجر فلن تدعه يطأ حافة الباب.

وحين أتت ماتيلد ومدام خياط لزيارتها للمرة الثانية ظنت أن عليها أن تبذل جهداً إضافياً من أجل البناية. كان يعجبها أن يكون سكان البناية كأنهم بيت واحد. إذا احتاجت إلى شيء تجده عند مدام لور أو تسأل عنه مدام خيّاط. اقترحت عليهن أن يغلقن مدخل البناية ببوابة حديد كبيرة، وافقنها على الفكرة، وبعد نقاش، أمسكت مدام لور ورقة وراحت تسجل عليها أسماء الساكنين.

مدام لور كانت تضع إشارة قرب الإسم الذي يعلن موافقته على الاشتراك بتكاليف البوابة. تدور على البيوت، لكن دائماً كان شيء ما يمنع اكتمال المشروع. تعود إليه من جديد، وفي كل مرة لم تكن عمتي تعرف من تباطأ أو تردّد. ماتيلد ظلّت على حماستها للبوابة، حتى أنها، حين رجعت إلى عزلتها في البيت،

ظلت تسأل مدام لور كلما رأتها عمن وافق من الجيران ومن لم يوافق بعد.

اختلفتا بسبب الماء. عمتي تقول إنها كانت تساعد ماتيلد بأن ترسل لها دلواً او دلوين حين كان الماء أكثر ندرة مما كان عندما اختلفتا. ترسل أولادها ليملأوا الدلاء من الحديقة. ينزلون مرات حتى يمتلئ البرميل البلاستيكي الذي أحضرته عمتي في بداية الحرب. بعد امتلائه كانت ترسل أولادها في نقلة أخيرة تخصّصها لماتيلد. هكذا كانت تفعل، اما الآن، وبمجرد أن تسمع ماتيلد صوت الماء في الأنابيب الملاصقة لنوافذ الحمامات، تهرع إلى الداخل، وتملأ المغطس والطناجر وسائر الأوعية مما يمنع الماء ان يتجمّع في الخزان. لم تسكت عمتي، لكن ماتيلد أغلقت بابها بقوة وذهبت إلى الداخل تاركة عمّتي ثائرة غضبى.

أحمد السبليني استأجر بيت الشيباني. لم يكن كرشه المتدلي العريض يمنعه من أن يكون خفيفاً كثير التنقّل. وقّع عقداً مع صاحب الملك في غفلة من الساكنين. وحين أتى إلى البيت مع زوجته لم تستطع عمتي إخفاء غضبها. قالت إنه كان أحرى بها أن تترك البيت مفتوحاً لمن يشاء.

لكن منذ الأيام الأولى بدت زوجة أحمد السبليني وكأنها تشكر عمتي على محافظتها على البيت. تتكلم كأنه كان بيتها حتى قبل أن تأتي إليه ويوقّع زوجها العقد بشأنه. راحت تشكر عمتي. لكن تنتقد نبيهة الشيباني التي لم تعرفها لأنها، بحسب قولها، أهملت الأدوات الصحية والقساطل، ولم تهتم إلا بشكل بيتها من الخارج.

أتى البناؤون بعد زيارة المرأة الأولى. صعدوا الدرجات وحين وضعوا أقدامهم خلف الباب ابتدأت جلبة مفاجئة كأن كلاً منهم توجه لتوه إلى مكان عمله الذي عيّنه منذ وطئت رجله مدخل البناية.

حين نزلت عمتي كانوا قد توزعوا في نواحي البيت كلها. واحد ينتزع المغسلة التي في آخر الممشى قرب الحمام العربي، آخر يزيح الرمل من تحت اللوح الرخامي الذي يفصل بين الممشى ومدخل الصالون، رجل ثالث نجح في نزع بابين خشبيين من أبواب الصالون المؤدية إلى الغرف. هذا ما قاله أحمد السبليني للنجار. لم ترق له الخطوط المائلة التي تزيّن الأبواب. تخيّلها وجوهاً عابسة وأحبّ أن يستبدلها بأبواب جديدة ذات خشب أملس.

كانوا يشتغلون في البيت بسرعة كبيرة، كأنهم يسابقون جولة حرب قادمة. بلّطوا الشرفة الخلفية الكبيرة ببلاطات رخامية بيضاء. دهنوا حديد الدرابزين. وفي الشرفتين الصغيرتين المواجهتين للحديقة أبدوا اهتماماً بإزالة الصدأ عن الحديد. كان أحمد السبليني قد أولى الشرفتين الصغيرتين عناية خاصة، إذ، بعد أن فرغ البناؤون من البيت، راح السبليني يصر على إبقاء البابين مفتوحين كي يتمكن من رؤية رؤوس البنايات العالية وخط البحر البعيد فيما هو جالس على كرسي منخفض في مكان ما من أقصى الصالون.

حين رأت عمتي المشهد من البابين المفتوحين اعتبرت ذلك اكتشافاً كان يجب أن تهتدي إليه منذ سنين كثيرة. جرّبت كيف يبدو المشهد من مواضع مختلفة من الصالون. جلست على كنباية وراحت تنظر متفحّصة من بين حديد الشرفة المتشابك. جلست في مكان قريب من الزاوية، كأنها تبحث عن خطأ أحدثه فتح البابين. اقتنعت أخيراً على إيقاع ضحكات جارتها الهادئة. لكن حين صعدت إلى البيت، خفّت حماستها وراحت تنشغل بأشياء أخرى.

مدام لور بعد أن رأت البابين المفتوحين استغربت أن يكون كل

ساكني البناية قد أحكموا إغلاق الابواب الخشبية المانعة لظهور المشهد. لم تكن تنتبه لذلك قبل مجيء المستأجرين الجدد. كانت لا تجد شيئاً غير عادي في الأبواب المقفلة أو المشقوقة عن فرجة صغيرة في بعض الطوابق. كانت تتخيل البرادي البيضاء الشفافة متهدلة على طول الطوابق الخمسة.

وحده بيت أحمد السبليني شرّع أبوابه. كانت التجديدات التي أدخلت على البيت تجعل الطالع على الدرج يحسب أن الشرفتين قد تقدمتا قليلاً عن واجهة البناية.

تخرج المرأة من بيتها بثياب النوم الزهرية وتصعد إلى بيت عمتي. تصعد بخطوات سريعة تنقّلها بخفة على الدرجات. تدفع بيدها الباب المشقوق وتدخل مندفعة مسرعة. منذ أيام مجيئها الأولى وهي تزور عمتي. تجلسان في غرفة الجلوس الملاصقة للمطبخ وتبدآن الكلام. كانت مولعة بشغل الصوف حتى أنها بينما تنزل قفزاً عن الدرجات لا تغيّر من وضع يديها المتقاطعتين على الكرة الصوفية والقضيبين المعدنيين.

أحمد السبليني وضع على الشرفة الكبيرة كنباية هزّازة بيضاء. تجلس زوجته وتهزها إلى الأمام والخلف. فجأة، ودون مقدّمات، تنزلق عنها وتركض الى المطبخ. كانت سريعة الحركة مما جعل عمتي تحسب أنها تقوم بأعمال البيت كطفلة صغيرة. وعلى الدرج، كان الخفّ الزهري المرهف يخرج من رجلها مرات. تقف، ترجع إلى الخلف خطوة واحدة. تعيده إلى قدمها. . . وتركض مسرعة إلى بيت عمتي.

عمتي ومدام لور ظلّتا تقولان بيت الشيباني وتقصدان بيت السبليني. حين ذهبتُ لزيارة عمتي كان بيتهم في الطابق الرابع مفتوحاً، وكان الضوء الآتي من بابي الشرفتين قد أضاء بعضاً من مساحة الممشى القريب إلى الباب. الرائحة المنسربة إلى الخارج

هي نفسها لم تتغير، والبلاطات ما زالت تعج بنقوشها الداكنة وخطوطها المنجدلة. لم يكن البيت لامعاً رغم نظافته الظاهرة لذلك حسبت أن الرائحة التي لم تتغير إنما تنبعث من نقوش البلاط ومن خطوطه.

ظنَّت ماتيلد أنه لن يأتي إلى البيت إلا لينام. يأتي في ساعة مبكرة من الليل، يلقي عليها التحية ويدخل إلى غرفته ويغلق على نفسه الباب. هكذا كانت تظنّ حين أعطته المفتاح الاحتياطي وطلبت منه ان يؤجّل الكلام حول بدل الإيجار.

في اليومين بين موافقتها ومجيئه هيّأت له الغرفة المجاورة لواحدة من الشرفتين الصغيرتين. كانت الأفضل بين غرف النوم الثلاث، وكي يصل إليها، عليه أن يعبر الصالون والممشى الصغير الذي يفصل بين غرف النوم والحمام الفرنجي. لم تكن تملك حلاً آخر، فلو أعطته الغرفة المطلة على الشرفة الكبيرة لكان أقرب إلى المطبخ. وستشعر بوجوده على باب الغرفة المقفل فيما هي خارجة من المطبخ أو داخله إليه.

حين أتى حاملاً حقيبته الكرتونية كانت ماتيلد قد هيأت له الغرفة. أخرجت منها حوائج كثيرة وتركتها فارغة إلا من السرير الخشبي الضيّق والطاولة الصغيرة التي وضعتها في زاوية الغرفة غير بعيدة من السرير.

ماتيلد لم تنم في ليلة قدومه الأولى. ما كادت تغفو حتى سمعت يده تمسك مقبض باب الحمام الفرنجي. ولما تخيّلته واقفاً فوق الجرن المستدير أغلقت عينيها كي لا تسمع بوله يسقط على جنباته الداخلية. استفاقت. ولم تنهض من سريرها رغم الرغبة الشديدة التي انتابتها. قدّرت أن عليها أن تبقى هكذا بلا حراك.

كانت على وشك أن تهبط في النوم العميق حين استفاقت للمرة الثانية. رفعت رأسها فجأة لما سمعت وقع أقدام في الغرفة حيث تنام. حدّقت في العتمة دون أن تتحرّك، وحين بدأت تنجلي لها الأشياء أيقنت أن لا أحد في الغرفة، وأن ما سمعته كان من جرّاء النوم المضطرب.

لم تنتبه إلى مسألة الحمام حين كانت تهيىء له الغرفة المجاورة للشرفة الصغيرة. ظنّت أنه سيأتي إلى البيت بعد أن يقضي حاجته في حمام الجامعة. ستشير عليه في الصباح أن يستعمل الحمام العربي، رغم المسافة التي سيقطعها قبل أن يصل إليه.

في ساعة متأخّرة من الصباح انتبهت إلى أنها تؤجل دخولها إلى الحمام، وحين دخلته، انشغلت وقتاً بسكب الماء في الجرن الذي جلست عليه بعد ذلك وهي تحاذر أن يلتصق فخذاها بشيء على حافته. كان قد خرج. ترك لها البيت واسعاً رحباً، ورغم ذلك كانت قلقة متوجّسة حين دفعت باب غرفته قليلاً. لم تجد فيها شيئاً غير عادي. كأنه لم ينم فيها ليلة كاملة.

كانت ماتيلد تستطيع أن تقدّر أنه خرج مبكراً من حرجه، وقدّرت أيضاً أنها لو وقفت على الشرفة الصغيرة ونظرت إلى الحديقة لرأته جالساً على واحد من المقاعد المتناثرة في أرجائها، منتظراً أن يحين موعد الجامعة.

لم تدخل إلى غرفته، حتى أنها حاذرت أن تصطدم قدمها بالحافة الرخامية التي تفصل الممشى عن أوّل الغرفة. أقفلت الباب

وراحت تتنقل بين غرف البيت والمطبخ. لم تكن تفعل شيئاً، وحين جلست على كنباية في الصالون أحسّت برغبة في الذهاب إلى سريرها. لم تنم، بل تمدّدت على ظهرها ورجلاها ملتصقتان ممدودتان على السرير.

كان يوماً طويلاً. في اليومين السابقين نظّفت ما يمكن أن تنظّفه بانتظار أن يأتي. لم تعرف السبب الذي دفعها إلى ذلك، ولم تعرف سبباً للمبالغة في ذلك حيث أن مكنستها وفوطتها وصلتا إلى زوايا ومخابىء لن يراها أحد.

قامت عن السرير كي تلقي نظرة على بعض المواضع التي نظّفتها في اليومين الماضيين. ذهبت إلى المطبخ. فتحت أبواب الخزائن الصغيرة التي تحت المجلى. تغلق الباب الصغير بعد أن تحدّق قليلاً في أرضية الخزانة وفي القناني والعلب. رمت نظرة إلى سطح البراد وإلى زاوية المطبخ وراء الباب. لم تكمل. ذهبت إلى الشرفة الكبيرة وأمالت رأسها باتجاه بيت الناطور. كان ولدان صغيران يلعبان متباعدين. كانا صامتين فاعتقدت أنهما لا يلعبان لعبة تجمع بينهما. خرجت أمهما من الباب إلى ضوء الشمس وقد أحاطت بيدها لكناً بلاستيكياً أخضر مملوءاً بالغسيل الرطب. لم تكلّم الولدين، ولم تلتفت لهما. ذهبت تواً إلى البركة الجافة وبدأت تنشر الغسيل على أطرافها.

كانت الشمس تسقط حارة على الزاوية الشرقية من شرفة الروسية. بدا إسمنتها حاراً وكالحاً من وهج الشمس. دخلت ماتيلد إلى غرفتها. تمدّدت على ظهرها وألصقت رجليها إحداهما بالأخرى وراحت تتناوم بأن تسقط الانتفاخ اللحمي الرقيق على عينيها الملوّنتين.

لم تنم كثيراً. كانت الشمس قد وصلت إلى حافة السرير ثم إلى ساقها حين قامت متضايقة من النوم النهاري. وضعت قدميها

في مشايتها العتيقة وذهبت إلى باب البراد. شربت ماء بارداً وخطر لها أن تذهب لزيارة الروسية.

حين أغلقت باب البراد كانت قد عدلت عن الزيارة إذ عاودتها رغبتها إلى الاستلقاء في السرير. ذهبت إليه مسرعة تخبط أقدامها خبطاً على الأرض. وحين أصبحت فوقه راحت تحسب كم تبقّى من وقت النهار. كأنها تنتظر قدوم مستأجرها يأتي في أول الليل.

عمّتي لم تبد اهتماماً بسكن الشاب في بيت ماتيلد. مرّت على ذلك مروراً عابراً في كلامها مع مدام لور. لم تجدا شيئاً تحكيانه كأن انقضاء نصف نهار على دخوله البيت كان كافياً لطيّ مسألته. كانت عمّتي، منذ بداية الحرب، أقل توقفاً عند الأمور التي تجري في البيوت. تحسب أن البناية تعيش أيامها الأخيرة، وأن ما تشاهده ليس سوى الفوضى التي تحدث قبل مدّة من رحيل الساكنين.

باتت أقل توقفاً عند الأمور التي تجري في البيوت. تركت مدام لور وزوجها يعانيان مشاكلهما خلف بابهما المقفل. كانت مدام لور قد بدأت منذ اندلاع الشرارة الأولى تفكّر في أميركا. تتخيّل الشوارع بالغة العرض هناك، والسيارات بيضاء أو حمراء فارهة، وإذا ما عنف القصف واشتدّ تروح السيارات تصبح أشدّ لمعاناً والشوارع أكثر عرضاً.

عمّتي كانت تعتقد بسفر مدام لور الوشيك. لن تجد صعوبة في العيش هناك، كانت عمّتي تقول، لأنها تعرف كيف تتعامل مع

البنوك وكيف تدبّج الرسائل إلى صديقات لها وقريبات موزّعات في بلدان كثيرة.

لكن في الهدنات تنسى مدام لور السفر ولا تعود تفكّر فيه. تنسى الشوارع العريضة والسيارات اللماعة الطويلة. وحين تطول الهدنة تروح تُدخل إصلاحات طفيفة على البيت وتحكي عن الحرب كأنها من تاريخ مضى.

في الأيام التي تلي الاشتباكات كانت تُشاهَد مع زوجها على الدرج. يقومان بنزهات أو بزيارات. أحياناً يسبقها إلى الطريق، ينفض الغبار عن سيارته الرمادية العتيقة، يمسح المقود وما حوله بفوطة صفراء، وينتظرها حتى تنزل.

أبراهام صار أكثر رغبة في الكلام مما كان عليه من قبل. على باب البناية يكثر الحديث والضحك مع زوج عمّتي، وحين يصعد على الدرج إلى بيته في الطابق الرابع يتسلّق الدرجات كأنه أصغر من عمره بكثير. كان قد غيّر من هيئته. لم يعد مصرآ على ارتداء البدلات وعلى نزوله هادئاً وواثقاً على الدرجات. زوج عمّتي قال إنه يشبه ولداً يقضي أيام عطلته، وقال أيضاً إنه ألف الحرب سريعاً لأن الأرمن معتادون على ذلك منذ طُردوا من تركيا.

كان مثل رجل متصاب في سرعة تسلّقه الدرج، ومرة انتبه زوج عمّتي إلى أنه ينفخ صدره ويعلي رأسه فيما هو يتكلّم.

خلف بابه المقفل كان يتحدّث مع زوجته عن محلّه الذي في الأسواق. يأتيها بأخبار عن المبالغ التي يدفعونها له لقاءه. كلّها عروض زهيدة لا تساوي نصف ثمنه الأصلي.

كان يجتمع أحياناً مع أصحاب المحلات في الشارع الذي يقع فيه محله. يقول لزوجته بعد رجوعه إن عليه الانتظار ريثما تنجلي الأوضاع. وحين عنفت الاشتباكات وبدأت تصل أخبار المحلات المحترقة، نزل، دون أن يمهل نفسه الوقت الكافي ليتأكّد من عدم

تجدّد الاشتباكات، وتسلّل إلى الأسواق حيث محلّه وعاد وهو يحمل حقيبتي ثياب كبيرتين، مملوءتين ساعات ومنبّهات صغيرة وساعات متوسّطة الحجم توضع على الطاولات أو على الرفوف.

عمّتي حسبت إنه ما كان ليقدم على تلك المغامرة لو لم يكن قد أنفق آخر ليرة معه. وضع الساعات والمنبّهات في الخزانة بعد أن أخرجها من الحقيبتين ونام تلك الليلة نوماً هادئاً. وفي الصباح، صعدت زوجته إلى عمّتي وقالت لها، بصوت منخفض قليلاً، بأن تقول لأقربائها إن أبراهام يبيع ساعاته بأسعار مخفّضة.

إشترى زوج عمّتي ساعة ذات كستك ذهبي، وقالت عمّتي لأقربائنا في حي المنلا أن يأتوا ليساعدوا مدام لور. أبراهام باع ساعتين لناس أرمن يسكنون في بناية قريبة. وبعد أيام كان قد خصّص زاوية في بيته لتصليح الساعات. كرسي وطاولة صغيرة وضع عليها الآلات المعدنية الدقيقة وناضوره القصير الأسود.

زوج عمّتي لم يصدّق أنهم بحاجة للمال إلى هذا الحدّ. كان يردّد نظرية خاصة حول الأرمن الذين لا ينفقون من مدخراتهم حتى ولو ماتوا من الجوع. قال إن أبراهام أقفل على أمواله باب الخزانة الذي لن يفتحه أبداً.

محل أبراهام احترق بعد أيام من إتيانه بالساعات والمنبّهات. احترقت محلات أخرى تقع في الشارع ذاته وفي شوارع أخرى قريبة. بعدها تعدّدت لقاءاته واجتماعاته مع أصحاب المحلات المحروقة. كانوا يجتمعون ويتحدّثون عن الحقوق، ومرّة، شاهد زوج عمّتي صورته في الجريدة مع آخرين، فجاء بها إلى عمّتي التي ركضت إلى مدام لور تسبقها الجريدة.

كانت تنتظر غليان الماء في القدر الكبير حين طرق طرقات خفيفة على إطار باب المطبخ الخشبي. كان متردّداً مرتبكاً، وحين نظرت إليه تردّدت قليلاً في السماح له بالدخول. كان يحمل صينية مستديرة وعليها إبريق للشاي، جديد ولماع ومن الصنف الرخيص. حين راح يغسله على المجلى ظلّت ماتيلد على وقفتها، وبينما كان يملأه بالماء راحت تحسبه يسترق نظرات سريعة إلى المنطقة السفلى من ساقيها السمينين الأبيضين. فكرت في لحظة أن تستدير أو أن تتوجه إلى البراد كي تمنع نظراته المتلصّصة. استدار عن المجلى، وعلى بعد خطوتين منها سألها إن كانت تأذن له بوضع الإبريق على الغاز.

اختلف عما كان عليه في اليوم الأوّل لمجيئه. منذ يومين خرج من الحمام الفرنجي نظيفاً رطب الشعر وجسده النحيل يختفي في البيجاما الرصاصية الواسعة التي راح يطوي أكمامها فيما هو يمسح ما علق في مشايته من ماء. اختلف عما كان عليه. وكان عليها أن تدرك ذلك منذ البداية، منذ أن رأت كتبه مستّفة على الطاولة

والملاءات مرتبة على السرير. كان يقضي وقتاً من الغروب جالساً على الشرفة الصغيرة. مدام لور رأته. كان جالساً على الكرسي ومتسربلاً ببيجامته الفضفاضة. لم يرق ذلك لماتيلد التي خرجت في عصر اليوم التالي إلى الشرفة الموازية كي تتحقّق من ذلك. فاجأته. أخفض رأسه وابتسم قليلاً. ولما أطالت وقوفها زاد ارتباكه وراح ينظر خجلاً إلى نقطة ثابتة في أعالي شجرات الكينا.

كان يحبّ المكوث في البيت. مشايته البلاستيكية وبيجامته جعلتا ماتيلد تعتقد بأنه، بعد أيام قليلة، سيقضي نهاراته كلها في البيت متردّداً بين الغرفة والشرفة والحمام. كان يضع منشفته المبللة على طرف الكرسي ويعرّضها للهواء الآتي من الباب. هو أنظف مما حسبت أول الأمر، وحين جالت ببصرها على الغرفة بعد رحيله بقليل وجدت الأشياء في مواضعها. الكتب على الطاولة، المشاية البلاستيكية على الأرض قرب السرير، والمنشفة على طرف الكرسي.

حين يغادر البيت تنتابها رغبة مفاجئة في الحركة. تتجوّل بين الغرف لكن لا تجد شيئاً تفعله. تنتهي من إعداد أكلها والوقت ما يزال صبحاً. تتمدّد على سريرها أو تنام، وتفكّر في أن تذهب لزيارة الروسية في الطابق الأرضي.

عند رجوعه يرن الجرس رنة خفيفة، ينتظر قليلاً، ثم يفتح الباب بمفتاحه. كأنه برنته تلك يعطيها الوقت الكافي لتبتعد عن الممشى أو عن باب الحمام العربي الذي في آخره. دخل من الباب، وبعد خطوة منه انعطف نحو باب الصالون. كانت عيناه ثابتتين وتحاذران أن تقعا على شيء في الممشى. دخل إلى غرفته وقعد لتوّه على حافة السرير. وبينما كان يخلع حذاءه سمع صوت مفتاحها وانفتاح الباب. أبطأ في خلع جواربه وأنصت إلى وقع قدميها الضخمتين تعبران بين الأبواب إلى غرفة نومها قرب

المطبخ.

كان يستطيع أن يسمع خطواتها تنتقل بين غرفتها والمطبخ والشرفة الكبيرة. حسبها تفتح أغطية الطناجر وتنظر في داخلها الفارغ. في غرفتها كانت تسوّي طرف الشرشف بلمسة عابرة ثم تتكئ بعد ذلك على السرير.

كانا يتحرّكان في مساحات ضيّقة. ماتيلد التزمت المطبخ وغرفتها والشرفة التي بينهما، وهو لم يبتعد إلى ما بعد الحمام. كان وسط البيت فارغاً بينهما ولا أحد منهما يقترب إليه. لم تنتبه ماتيلد إلى أنها تحاذر الاقتراب من باب الصالون، وأنها، حين تنام، تكتفي بالجهة الجنوبية من السرير وتترك المساحة التي لجهة غرفته واسعة خالية.

استفاقت دفعة واحدة حين دوّى صوت القذيفة. كانت قريبة إلى حدّ أنها حسبتها وقعت في محيط البناية. انتظرت قليلاً في السرير. قامت إلى الحمام العربي. وبعد لحظات قليلة خرجت منه مدفوعة راكضة على دويّ القذيفة الثانية.

كانت القذائف تجعل ماتيلد تخطئ في تقدير المسافة التي بين قدمها والبلاط. كادت تقع مرات، وحين أسندت يدها إلى الحائط شعرت بارتجاجه كأن قذيفة صامتة انفجرت في داخله. كان القصف قريباً، أقرب مما اعتادت، وحين قطعت باب الصالون باتجاه الممشى الصغير الذي بين الحمام الفرنجي وغرف النوم رأته واقفاً على باب غرفته. كان وجهه مصفرّاً، وحين رآها راح ينتظر منها أن تقوده إلى الزاوية التي تقصدها أثناء القصف.

جلست على الكرسي الذي في الزاوية وألصقته بالحائط باندفاعة من ظهرها وقدميها. تكوّم في الزاوية الأخرى قرب باب غرفته. كان خائفاً ومضطرباً ولم ينظر إليها مرّة واحدة من طرف عينيه. قالت له أن يقترب باتجاهها فتقدّم إلى الزاوية الأخرى. باتا

قريبين جداً، حتى أنها أرجعت رجليها إلى الخلف لكي تترك له متّسعاً.

كان ملصقاً صدره بركبتيه ويداه تحيطان رجليه من الأسفل. وحين أفلتت منه نظرة إليها كانت عيناه مضطربتين ونديّتين. كانت تنظر إليه من الأعلى فيتقلّص ويتكوّم على نفسه. ولما مرّ وقت على آخر قذيفة غيّر من وضعه قليلاً ولفظ كلمات عرفت ماتيلد إنه لا يقصد بها شيئاً محدّداً. كانت تعرف أن القصف توقّف لكن لم تقم عن كرسيّها. رفع رأسه باتجاهها وحين التقت عيناهما أطلق ابتسامة سريعة متردّدة.

ما كان أحد يظنّ أن الروسية ستتصرّف بهذا القدر من الهدوء. ذهبت تواً إلى المطبخ، فتحت بابه الأخضر المطل على الساكنين الجدد وأشارت إلى واحد من الأولاد أن يأتي. كأنها قد هيّأت سلفاً ما فعلته، بل وربّما تمرّنت عليه مرّات. كانت بين الحين والحين تفتح مزلاج الباب وتغلقه، فقط كي تتأكّد من سرعة قيامها بالحركة. والأولاد الذين على قطعة الأرض الواسعة، ما كانت لتبادر إلى الكلام معهم لو لم يهيّئها زوجها لذلك. هو الذي جعلهم أليفين مطيعين. وقف خلف النافذة وراح ينادي أقربهم إليه. كان يدعوه بصوت خافت والولد يتردّد في التقدّم. وحين تحرّك الولد قاطعاً الخطوة الأولى باتجاهه، كان إخوته في قطعة الأرض الواسعة مسمّرين كل في مكانه.

في المرّات التالية كان يكفي أن يطلق الروسي صوته الذي على حافة السعال حتى يتقدّم إليه أقرب الأولاد. كان الروسي يبذل جهداً من أجل أن يحافظ على ابتسامته طيلة المدّة التي بين تقدّم الولد ورجوعه. يذهب الولد إلى الدكان في الشارع العالي،

وحين يعود، يجد الروسي منتظراً على كرسي المطبخ. يقوم. يأخذ من يده الأغراض وما تبقى من النقود، وينبس بكلمات مشوّشة غير مفهومة تعبيراً عن شكره.

تصرفت الروسية بقدر كبير من الهدوء أولاً حين علمت من الطبيب بأن زوجها يعيش آخر أيامه. لن يصمد أكثر من أيام قليلة. وحين رجعت إليه لم يبد على وجهها الخوف أو الارتباك. غطته حتى ذقنه. سألته إن كان جائعاً. وجلست أمامه على الكرسي الذي بجانب السرير. وكانت رابطة الجأش حين أشارت للولد أن يأتي. قالت له أن يخبر ماتيلد بأنه مات. صعد الولد إلى الطابق الثالث، وبعد قليل، عرفت الروسية أن ماتيلد تنزل الدرج مسرعة متعجّلة، وأنها لا تكترث للصوت العالي يطلع من خبط أقدامها على الدرجات.

دخلت ماتيلد البيت، وأوّل ما فكّرت فيه أن تجد طريقة لتجعل الروسية تفتح الأبواب والنوافذ لتخرج الرائحة التي توحي بأن البيت مقفل على أصحابه منذ سنوات. كان ممدّداً على سريره، وعلى الطاولة الصغيرة نظارتاه ذات الإطار الفضي. لفتت ماتيلد خصل من شعره البني مسبلة على جبينه وأذنيه. قالت إن شعره لم يتغيّر منذ رأته أول مرّة في البناية، وفكّرت أن وجهه أيضاً لم يتغيّر كثيراً عمّا كان. ما زال وجهه محتفظاً بملامحه الفتية التي تدلّ على نوع الحياة التي عاشها حين مجيئه شاباً إلى البناية. تخيّلته ماتيلد سريع الحركة كثير التنقّل بين بابه ودرابزين الحديد ومدخل البناية العالي. كانت تغطي وجهه خصل من شعره الأملس كيفما التفت أو استدار.

مكث الثلاثة حائرين في البيت. لم تستطع ماتيلد أن تفعل شيئاً سوى إلقاء الأسئلة المتردّدة على الروسية. كان كأنه نائم في الغرفة الملاصقة المفتوحة الباب، وكانت ماتيلد ترمي نظرة خاطفة

عليه بين الحين والآخر. أما إجابات المرأة فقد جعلتها تتأكد من حاجتهما إلى من يعينهما، وإلا ظل الرجل ممدّداً هكذا إلى الأبد.

حين نزل أبراهام كانت رؤوس أولاد الساكنين الجدد تصطفّ على علوّ واحد من حافة الشرفة، كأنهم ينتظرون صوتاً أو مشهداً ليدور الكلام بينهم. دخل أبراهام. قالت له ماتيلد إنها لا تعرف ماذا تفعل. وحين انتحت به جانباً، بعيداً عن الروسية، أخبرته أن المرأة لا تعرف عنواناً واحداً إلا هاتف ابنتها في لندن.

الرجل الذي سكن في بيت الناطور ظلّ واقفاً على الباب. لم يدخل. وحين دعاه أبراهام للدخول قال إنه أتى ليسأل إن كان باستطاعته أن يفعل شيئاً. الروسية لم تقل لإبراهام شيئاً ذا فائدة. وحين سألتها عن المرأة التي كانت تزورها في حي المنلا راحت تغمغم وتقول كلمات غير مفهومة. قالت إنها تعرف رقم هاتف ابنتها. وحين ألحّ عليها أن تتذكّر أحداً من معارفهم في بيروت تركته وراحت تبحث في أغراض زوجها في الخزانة.

بحثت كثيراً قبل أن تعثر على الورقة المطوية في جيب سترته المعلّقة. وحين قرأ الرقم لم يستطع أن يتبيّن إسم صاحبه. قالت المرأة إن هذا رقم اللجنة. قال لها أن تتولى الكلام معهم. انتظرت كثيراً على الهاتف قبل أن يبادر أحد إلى الردّ. حين تكلّمت، قالت كلمات مقتضبة هادئة لم يفهم أبراهام منها سوى أن المرأة ما زالت تتكلّم الروسية.

كانت ماتيلد قد فتحت نافذتين من النوافذ المطلّة على حائط البناية المجاورة حين دخلت أم إبراهيم الكيلاني إلى البيت. ارتبكت كعادتها واحتارت على من تسلّم وقعدت في مكان قرب زاوية.

حين أتى الرجل الذي سكن في بيت الناطور للمرة الثانية، ظل على الباب. رنّ على الجرس بعدما تأكّد له أن طرقه الخفيف

لن يصل إلى أذني أحد. كانت في يده ركوة قهوة وعدد من الفناجين أخذها منه أبراهام، وفي الداخل، راح يقدّم الفناجين بنفسه إلى النسوة الصامتات. كان في الصينية عدد إضافي منها. صبّ أبراهام واحداً لنفسه، وحين دخلت زوجته وعمّتي وضع يده على الركوة متحسّساً سخونتها.

عندما اقترحت مدام لور أن يفتحوا بعضاً من النوافذ ارتبك زوجها وراح يسأل ماتيلد أيّ نافذة يفتح. لم تجب ماتيلد، بل حدّقت فيه كأنها تفكّر في سؤاله. أشارت عليه أم إبراهيم الكيلاني من الزاوية أن يفتح نوافذ المطبخ والغرفة التي بجواره. كانت هذه أول مرّة تتكلّم فيها منذ وصولها. ورغم أن كلماتها كانت قليلة إلاّ أنها كانت كافية لجعلها تستريح في جلستها لدقائق قادمة. رغبت أن تتكلّم مرّة ثانية لكن وجه ماتيلد الصامت لم يشجّعها على ذلك.

حين دخل الرجلان كانت السيارة القديمة تنتظرهما مع سائقها أمام مدخل البناية. استقبلهما أبراهام. كان أحدهما قصيراً ويرتدي ثياباً كثيرة رغم الطقس المعتدل. تكلّم بعربية مكسّرة مع أبراهام، ودخل مع رفيقه إلى الغرفة حيث كان الروسي مسجّى على السرير. كانا عجوزين، وقد قدّر أبراهام أنهما صديقان قديمان للروسي. حين رأتهما الروسية مقبلين باتجاهها راح جسدها يرتجف وأخذت تبكي كأنها بنت صغيرة. تكلّمت معهما بكلمات روسية باكية فيما هي ترتد خطوتين إلى الخلف لكي تصبح مؤخرتها فوق الكرسي. قعدت. وراحت في بكاء خافت.

كانا عجوزين إلى حدّ جعل أبراهام يظن أنهما آخر من تبقى من اللجنة. أقعدا مدام لور حين قالت لهما، واقفة، أنها ستصنع لهما قهوة. كانا لطيفين، ورغم بطئهما في المشي إلا أنهما كانا

يبدوان ماهرين في التصرّف.

الروسي الميت كان كأنه ينتمي إلى بلد مختلف عن بلدهما. حتى وهو مسجى على السرير كانت على وجهه مسحة من نبالة لم تفارقه. كأنه ابن اقطاعي قديم. ماتيلد لم تزل، حين تحنّ إلى زمن البناية الأول، تتخيّله شاباً خارجاً من باب بيته كأنه نازل على درج سفينة كبيرة.

وقف واحد من الرجلين العجوزين على باب البيت وأشار بيده إلى السائق الذي كان متكئاً على باب السيارة. اقترب السائق. أعطى للرجل العجوز قلماً وورقة استردهما منه بعد وقت قصير. ثم أسرع إلى السيارة، أدارها ورحل.

حين رجع الرجل إلى الداخل وانتحى جانباً بالروسية قدّرت عمّتي أنهما يتحدّثان بشأن تكاليف الدفن. كانت الروسية تحرّك وجهها يميناً وشمالاً كأنها ترفض عرضاً يُقدّم لها. بدا أنه يلح عليها من تكرارها حركة رأسها ومن اتخاذها نبرة عصبيّة كادت تودي بها إلى البكاء. تراجع الرجل قليلاً، وبدا أنه سيتوجّه إلى حيث يجلس الضيوف.

لم يكن قد مضى وقت طويل على العجوزين حين أصبحا يتحرّكان وحدهما في البيت. أبراهام وجد نفسه جالساً على الكنبة منتظراً أن يوكل إليه الرجل القصير عملاً ما. الرجل العجوز الآخر كان يحافظ دائماً على المسافة التي تبعده عن رفيقه. يتحرّك في أرجاء الصالون الفسيح لكن دون أن يفعل شيئاً يذكر. كان يبدو أكبر سناً من رفيقه لكن أخف حركة. ماتيلد لم تنتبه إلى الرجل القصير حين تقدّم باتجاهها. قالت عمّتي إنه حسبها روسية مثله.

لما وصل السائق نزل مسرعاً من الباب وراح ينظر من حيث أتى إلى الموكب الذي يتبعه. كان موكباً كاملاً. سيارة موتى رمادية

وسيارتان خلفها زُيّنت كل واحدة منهما بإكليل كبير من الزهر. حين توقفت السيارتان نزل من إحداهما إثنان من الخوارنة. دخلا تواً إلى حيث كان يرقد الروسي. مكثا وقتاً عنده ثم خرجا. كانت حركاتهما سريعة لدرجة أنه بدا على الروسية أنها لم تصدّق أن زوجها قد أصبح داخل السيارة الرمادية الكبيرة. لم يضيّع الرجلان العجوزان وقتهما، وكذلك الخوريان. ما شاهدته كان أشبه بتقليد للمراسم التي تجري في مناسبات الموت. لم يتركوا لها أن تتباطأ في إخراجه من البيت، وساكنو البناية الذين كانوا على الكنبايات لم يُتح لهم أن يلتفّوا حول الروسية أو أن يبدوا عطفاً نحوها لم يظهر منذ أن دخل كل منهم إلى البناية لأول مرّة.

أمّ إبراهيم الكيلاني راحت تردّد أمام المهجّرين في الطابق الأرضي أن الروسية وحيدة مستوحدة وربّما تموت ولا يدري بها أحد. كانت تحثّ زوجة المهجر من وقت لآخر على طرق بابها، وفي المدّة الأخيرة، اشتدّ إحساس أم إبراهيم الكيلاني بموت الروسية القريب فصارت تقف مستندة على الدرابزين الذي في آخر الشرفة الكبيرة وتنظر إلى نافذة المطبخ المقفلة علّها تشاهد ظلاً أو حركة داخل المطبخ المعتم.

زوجة المهجر كانت تمتنع عن كبس الجرس لأنها تفكر في المسافة التي على الروسية أن تقطعها لتصل إلى الباب. كانت تتراجع في آخر لحظة، ومن أجل أن تطمئن على المرأة كانت تكتفي بسؤال الأولاد عنها. تطلق صوتاً عالياً من باب مطبخها فيتقدّم أحد الأولاد إليها، فتسأله، بصوت عالٍ أيضاً، متى رأى الروسية آخر مرّة.

ماتيلد جعلت تزور الروسية بعد موت زوجها. تأتيها في زيارات متباعدة. تجلس بقربها على الكنباية وتروح تسألها عن

شؤون البيت وعن أكلها وغسيلها. تجيب الروسية إجابات مقتضبة وتعود إلى سكوتها. صارت ماتيلد تباعد بين الزيارات، وتشعر، كلّما همّت بالنزول إليها، أن عليها أن تتهيّأ كأنها ذاهبة في زيارة إلى مكان بعيد.

زوجة الرجل الذي يسكن في بيت الناطور قالت لأولادها أن يسألوا الروسية عن ثيابها الوسخة إذ ما أطلّت برأسها من الباب. وبلغ من شفقة المرأة عليها إنها راحت تقول لزوجها أن يقنع الأولاد بأن يحملوا لها صحناً من الطعام كل يوم. كانت صادقة في مشاعرها تجاه الروسية، وكلما حملت اللكن البلاستيكي المليء بالغسيل الرطب تبطئ في مرورها أمام نافذة الروسية كأنها تستدرجها كي تعطيها ثيابها الوسخة.

حين نادت الروسية على واحد من الأولاد هرعت المرأة الضخمة إلى تحت النافذة وراحت تنهال على المرأة العجوز بكلمات عرفت في نهايتها أنها لم تكن مفهومة بما فيه الكفاية. كانت الروسية تحدّق فيها بوجه بارد، وحين صمتت المرأة ظلت تنظر إليها للحظات دون أن تحرّك شيئاً في وجهها. وفجأة، وفيما هما محدقتان ببعضهما، ابتدأت المرأة الضخمة جولة أخرى من الكلام السريع المتدافع، لكن، هذه المرة، كانت ترفق كلامها بحركات من يدها: تمسك ثوبها من جهة الرقبة وتعليه قليلاً، أو تكوّر أصابعها وتقربها من فمها مرات متتابعة.

أم إبراهيم الكيلاني لا ترى غسيلاً للروسية على الحبال التي في زاوية شرفتها الكبيرة. أحياناً تتدلى من الدرابزين فتكاد تسقط في محاولتها البحث عن المكان الذي تعلّق فيه المرأة غسيلها. منذ وقت طويل لم تغسل شيئاً من ثيابها، والملاقط الخشبية لم تبرح مواضعها على الحبال. من كانت في عمر الروسية لا تتسخ ثيابها، ظنت أم إبراهيم الكيلاني. هي لا تعرق، إذ إن شبّاك مطبخها يمنع

الشمس من أن تصل حتى إلى حافة المجلى.

يركض الولد وفي يده الورقة النقدية باتجاه الباب الحديدي، وحين يصله ينتظر قليلاً كي يلحق به واحد من إخوته. وحين يعودان، يجدان المرأة بانتظارهما، على الكرسي نفسها التي كان يقضي عليها زوجها فترة الانتظار. يقدم الولد الأغراض بكلتا يديه. الروسية لا تأكل إلا من العلب، قالت المرأة الضخمة لزوجها فيما هما متحلّقان مع الأولاد حول صينية الطعام الكبيرة الواسعة. وحين بدا على الرجل بعض الاهتمام قال واحد من الأولاد إنها تطبخ السردين الذي في داخل العلب وروائحه تخرج من الشباك مثل رائحة الزيت المحروق.

حين ماتت الروسية قدّرت ماتيلد أنه ربما انقضت أيام على موتها دون أن يعرف أحد من ساكني البناية. كان القصف عنيفاً في الأيام الأخيرة، إلى حدّ أن ساكني بيت الناطور اضطروا إلى المغادرة بعد تعرّضهم للقصف. والمهجرون الذين في الطابق الأول، في الشقة المقابلة لشقة الروسية، عرفوا من الرائحة التي انبعثت من النافذتين الصغيرتين اللتين للحمّام العربي وللتتخيتة التي فوقه. لم يفعل المهجرون شيئاً حين أيقنوا أن لا أحد حياً في الداخل. لم يخلعوا الباب، ولم يتسلل الرجل من شرفته إلى إحدى النوافذ المفتوحة. صعدت المرأة إلى بيت ماتيلد. نزلت ماتيلد على الفور، بحماسة كأنها متجّهة إلى أن تفعل شيئاً لا تدريه، وحين وصلت إلى الباب، تباطأت. وقفت حائرة مرتبكة، وانتظرت أن يشير عليها المهجّر بما يجب فعله.

حين فتح المهجّر الباب من الداخل كان يغلق فمه وأنفه بيده. فتح الباب وخرج مسرعاً إلى مدخل البناية. لم تدخل ماتيلد، بل انتظرت أن يدخل أحد قبلها ويفتح النوافذ التي حرصت الروسية على إبقائها مقفلة منذ سنوات كثيرة.

حين أصبحت في الداخل عرفت لماذا لم تكن المرأة تنشر غسيلاً على زاوية الحبال في الشرفة. عرفت ذلك من كومة الثياب الكبيرة التي جمعتها المرأة في غرفة نومها، في المساحة بين سريرها وحافة الخزانة. كومة ثياب كبيرة عالية، وضعت فيها الروسية كل الثياب التي في الخزائن والمتجمعة منذ وقت طويل. بعض من ثياب زوجها كانت في الكومة أيضاً. لجأت إليها بعد أن اتسخت ثيابها كلها ولم يعد في خزانتها من مزيد.

وكان في المطبخ علب فارغة كثيرة. رأت ماتيلد كيف أن المرأة لم تكلّف نفسها عناء تجميع العلب الفارغة في مكان واحد في المطبخ. لم تمكث ماتيلد طويلاً داخل البيت. صعدت إلى بيتها مسرعة كأنها ذاهبة كي تجري الاتصالات منه. لم يكن في البيت. ذهبت إلى مدام لور التي صعدت بدورها إلى عمتي. لم تُضِع عمتي وقتاً كثيراً. كانت أسرع مما تصوّرت مدام لور. نزلت إلى المستوصف الذي في البناية الملاصقة وقالت للذين رأتهم هناك إن المرأة ماتت منذ أيام.

سيارة المستوصف لم تأخذ إلاّ جثة المرأة. تركت البيت على حاله. أقفله المهجّر بأن وضع على درفتيه عارضة خشبية دقّها بمسامير. كانت ضربات شاكوشه تنهال بقوة على المسامير والعارضة الخشبية، ومن حوله كانت ماتيلد وعمتي ومدام لور، يقفن صامتات، كأنهن يشرفن على عملية تتطلّب مراقبين وشهوداً.

صعدت ماتيلد إلى بيتها. فتحت الباب بالمفتاح الذي أبقته دافئاً في قبضة يدها ودلفت إلى الداخل. لقد غيّرت من وضع الغرف. باتت تنام في الغرفة الملاصقة لغرفته ولا يفصل بين مكاني نومهما إلاّ الممشى الصغير وباب الحمّام الفرنجي. زادت أثاثاً جديداً على غرفته. أعارته عمود الثياب فوضعه في الزاوية

خلف الباب وأمدّته بكرسيين آخرين من أجل ضيوف قد يأتون لزيارته من الجامعة.

كان يتسربل بيبجامته بمجرد أن يصل إلى البيت، وفي الفترة الأخيرة أصبح حراً في التجول بين الغرف. يدخل إلى المطبخ وقت العشاء فيجلس على الطاولة بمواجهة ماتيلد. أشياء كثيرة تغيرت بينهما. قالت مدام لور إنه يدفع لها نقوداً إضافية مقابل الأكل الذي تقدمه له مرتين في اليوم، لكن خادمة في الطابق الرابع من البناية المجاورة رأته يدخل إلى غرفتها ويخرج بينما هي مستلقية على السرير. كان الشباك الخشبي مفتوحاً، وحين رأت ماتيلد الخادمة تتطلع صوب الغرفة، قامت من سريرها وأغلقت الشباك الخشبي، كما أغلقت الزجاج من بعده.

منذ أن راح يتردّد إلى غرفتها وهو يكثر من حركته في أرجاء البيت. كان يفتح الرفوف ويحدق في ما فوق الخزائن وفي زوايا الصالون وأثاثه. لم يشبع من التعرف على البيت. ماتيلد تبقى ممددة في سريرها بينما هو يتنقّل بين غرفة وأخرى. تتخيّل حركته وموقع يده على حافة الخزانة أو في أعلى البراد، ويقع الانتفاخ الخفيف على عينها الزرقاء الكبيرة. وحين يرجع إلى غرفته حيث ينام، وفيما هو يحدثها قبل ذلك، يلقي نظرات على رقبتها وساقيها الملتصقتين الممدودتين أمامها على السرير.

حين رجع إلى البيت في مساء ذلك اليوم، وجد ماتيلد قد أخرجت الثياب المطوية من الخزائن وراحت تعيد طيّها من جديد. كانت مضطربة قلقة. وحين دخل إلى غرفتها ردّت عليه التحية بكلام فاتر واستمرت تطوي الثياب وتضعها في رفوف الخزانة. سألها عن العارضة الخشبية التي على باب بيت الروسية. قالت له. نظرت إليه. كانت عيناه زائغتين ووجهه النحيل عاد يشبه وجوه الكهول من أبناء منطقته.

وبرغم تردّده إلى غرفة نومها وتجوّله حراً في غرف البيت الكثيرة، كانت، في أحيان كثيرة، تفاجأ بوجوده خلفها في المطبخ أو في واحدة من الغرف. تحسّه فجأة، هكذا، كأنه لم يأتِ من الباب، أو كأنه كان في الغرفة قبل دخولها إليها. تبقى خائفة للحظات، ثم تطلق كلمة. فقط لتقول شيئاً وتسمع جوابه عليه. وحين تخرج قبله يتقلّص ظهرها، كأنها تحاذر يداً تلمسها أو تدفعها إلى الأمام.

لم تكلمه بشيء عن الروسية. وحين أتى وقت العشاء طلبت منه أن يذهب وحده إلى المطبخ. بقيت على قعودها بمواجهة درفة الخزانة. وحين فرغ من طعامه ذهب إلى غرفته سالكاً طريق الممشى الطويل والصالون. تجنّب رؤيتها مرة ثانية. أقفل باب غرفته ولم يفتحه إلاّ إلى الحمّام.

مدام لور اكتفت من التصليحات التي كانت تجريها على بيتها بدهن الباب الخارجي والمساحة المحيطة به من الحائط ذي الطلاء الكلسي الأصفر. بدا مدخل بيتها نافراً عن حائط الدرج وجعل مداخل البيوت الأخرى تبدو عتيقة. في الطوابق السفلى راحت أيدي الأولاد تحفر خطوطاً طويلة على حائط الدرج. يمسك الولد حرفاً معدنياً يلصقه بالحائط ويمشي به طابقاً أو طابقين، وفي بعض المواضع كانت تكفي ضربة خفيفة من يد ولد عابث حتى تنكشط دائرة كبيرة من الدهان. تسقط طبقات وألوان مختلفة من الدهان المتراكم فتتفاجأ مدام لور حين تراها من عدد المرات التي طُلي بها الدرج قبل مجيئها إلى البناية.

مدام لور توحي بأنها ما زالت تُجري التحسينات إياها على البيت لأنها لا تحب أن ينعتها الجيران بالكسل. كانت تخاف من أن تفقد رغبتها بشغل البيت، خصوصاً وأنها في أيام كثيرة باتت تعزف عن مسح اللوحين الزجاجيين المحجّرين اللذين على درفة الباب. بدأت تشعر بلا جدوى الشغل، وحين تنظر إلى البيت

القرميدي ذي الطوابق الثلاثة، والذي في طابقه الأرضي المستوصف الشعبي، تعرف أن الناظرين إلى البنايتين المجاورتين من بعد سيلاحظون مدى ضياع الجهد الذي كانت تبذله سدى. كانت الشبابيك الخشبية في البناء القرميدي المجاور مشرعة متخلّعة. والفراغ الذي أحدثه سقوط قرميدات قليلة عن السطح يوحي بأن لا أحد يقيم في الطابقين العلويين. غادرت المرأة التي كانت تقف على واجهة الشباك مسندة رأسها إلى درابزينه الأبيض، وليس في البناء إلاّ حركة العاملين في المستوصف بالطابق الأرضي.

مدام لور التي كانت أوّل من بادر إلى تبليط الشرفة الكبيرة باتت تعرف أن الوهن يتسرّب إلى البناية من الشرفات الكبيرة. تنظر نظرة متدرّجة على الشرفات فتجد غباراً وأتربة تجمّعت عند أطراف الشرفات وزواياها. قالت بدأ الساكنون يبتعدون باتجاه الغرف الداخلية. وفي النهارات المشمسة يطلّون من الشرفات الصغيرة التي تشرف على الحديقة وهم يقفلون الأبواب حين يعودون منها إلى الداخل.

ظلت تحلم بأميركا حتى راحت السيارات هناك ترجع إلى أحجامها العادية، وصارت، حين تتخيّل، لا تجد نفسها واقفة على الشوارع العريضة التي زُرعت على جنباتها الزهور والحشائش الخضراء ذات العلو المتساوي. لقد أثّرت فيها المسلسلات الأميركية. باتت تقول إن أميركا مثل كل البلاد، وفي أحياء الزنوج مشاهد لا تقل بشاعة عن المناطق المكتظة في الحي القريب.

لم تعد تفكّر بالسفر. وحين بدأ زوجها يسألها فيه راحت تبحث عن طريقة لتثنيه عن أفكاره. كان يتغيّر شكله حين يدخل إلى البيت. لا يعود متصابياً خفيفاً كما هو على الدرج. لا يعود

رافعاً رأسه ومعلياً أكمامه إلى منتصف زنديه. يحلّ عليه التعب بمجرد أن تفتح له الباب. يضع قدماً في الداخل ويزفر نفساً كبيراً يهبط صدره على أثره ويتهدل كتفاه، ثم يذهب تواً إلى غرفة الجلوس. وحين نظر إلى الطاولة والكرسي اللذين أعدّهما لتصليح الساعات سأل زوجته لماذا أبقتهما في مكانهما. لم تطل رغبته في إصلاح الساعات، وبات، بعد أيام على تجهيزه الطاولة والكرسي، يقول لزوجته أن تمتنع عن إخبار الناس أنه يشتغل في بيته. أصرّ على قراره. وحين أتته عمتي بساعة خربة لواحد من الأقرباء لم يبد عليه الانشراح. قالت عمتي لقريبتها بعد ذلك إنه أصلحها غصباً عنه.

في لحظات القصف الشديد لا يجد أمامه إلاّ زوجته يحنق عليها لحؤولها دون السفر. تسقط القذائف قريبة وفي محيط البناية فيروح ينتظر توقّف القصف وطلوع الصباح حتى يذهب تواً إلى السفارة الأميركية. في الصباح ينسى. لكن، وهو يتجول في البيت، تنتابه نوبات من الضيق وفراغ الصبر فيعلو صوته ويرعد بكلمات أرمنية عنيفة تسمعها عمتي في بيتها بالطابق الأعلى. ليست إلاّ جملة طويلة واحدة. يقولها بصوته القوي ثم يسكت بعدها فتعرف عمتي أن مدام لور ترتجف أمامه وانها تضع كفّها على فمها فيما هي تدفعه إلى الصمت.

يضيق بالبيت ويطيل المكوث فيه. قالت عمتي لمدام لور إن البيت لم يُخلق للرجال. قالت إنها زيّنت له الخروج لكن لم يُجْدِ ذلك نفعاً. لم يعد التجّار يجتمعون من أجل مطاليبهم، وهو صارَ يقول لها كلما سألته إن المسألة صارت سياسية.

عمتي تقول إن أبراهام طيّب القلب وذلك بعد أن تجري مقارنة بينه وبين زوجها الذي لا يمكث في البيت لساعتين متصلتين. وفي المرات التي يبقى فيها مضطراً بسبب القصف يصير لا يطاق.

يتدخل بالكبيرة والصغيرة، ويسأل أسئلة من أجل أن يفتعل مشاكل من الإجابات.

أبراهام، في فترة لاحقة، لم يجد حرجاً من العمل في الفرن الذي اشتراه زوج عمتي. لم تصدّق عمتي أول الأمر، لكنها حين رأته بعد الظهر ملطّخاً ببقع الطحين أيقنت أنه لم يكتف بتوزيع الخبز بالسيارة على المطاعم بل إنه دخل إلى حيث السَقالات ومكنة العجين. كانت حركته سريعة في الفرن، وكان ثرثاراً كثير الكلام لكن لم يأنف من القيام بأي عمل.

على الدرج كانت عمتي تراه متحمّساً ومتصابياً. تتذكّر كلام زوجها عن اندفاعه في الشغل فتضطرب نظرتها إليه. حين ترى بنطلونه مبقّعاً بالطحين تنفر العظمة الزائدة في قدمه وينفلش حذاؤه العريض.

مدام لور باتت تكثر من البقاء عند عمتي منذ أن اشتغل زوجها في الفرن. لم يتغيّر شيء في سلوكها. بقيت هي نفسها في نظر عمتي وأبراهام وحده الذي تغيّر. وحين أخبرها زوجها أن أبراهام يكثر من الكلام ويقع في سوء تفاهم مع الزبائن تأكّد لها ثقلُ ظلّه.

كان ابن عمتي نائماً في بيت مدام خيّاط حين دوى الانفجار. هزّته زوجته وفي ظنها أن القذيفة سقطت على سطح البناية. قام من نومه مباغتاً. وحين رأى كسر الزجاج منتشرة عليه وعلى السرير قفز إلى حيث ينام ابنه الذي لم يزل بعدُ في شهوره الأولى. لم يكترث لزوجته. لم يكلّمها. وحين أصبح ابنه بين ذراعيه ركض في وثبات سريعة إلى الباب. ولما فتحه لم يجد من الدرجات إلاّ بعضها معلقة على الحائط، وأقساماً من بعضها مبعثرة في مواضع متفرقة. استطاع أن يوقف اندفاعته، ولولا ذلك لسقط مع ابنه إلى أسفل البناية. تراجع إلى الداخل، وابنه بين ذراعيه لا ينقطع عن البكاء.

مدام خيّاط أعارته بيتها بعد أن أخذت عهداً على نفسها أن لا ترجع حتى تنتهي الحرب. أعارته البيت كله ولم تُقفل حتى غرفة واحدة. كانت زوجته السمراء النحيلة كثيرة الحركة. تطوف في غرف البيت الواسعة ثم، بين الحين والحين، تذهب إلى السرير حيث ينام أو يتمدّد. تنحني. تضع ركبتيها على الأرض وتتأمّله

نائماً أو مستلقياً فيما مرفقاها منغرزان بالفراش المطّاطي الرخو.

مدام خيّاط غادرت بعد أن أخذت قدراً من أغراضها يفوق كل ما أخذته في المرات السابقة. راعها ما حدث لماتيلد. وكانت في الأيام القليلة التي قضتها في البيت بعد الحادثة، لا تجرؤ حتى على القيام إلى الحمّام الملاصق لغرفتها. راحت تخاف حتى من الشرفة الصغيرة والدرج.

عمتي وافقت بسرعة على أن يسكن إبنها وزوجته في بيت مدام خيّاط في الطابق الثالث. كان أكثر أماناً من بيتها المكشوف. نزل مع زوجته إلى البيت ذي الأثاث القديم، ومنذ دخوله الباب، راح يبحث عن طريقة كي يبقى فيه حتى بعد أن تنتهي الحرب.

عمتي باتت تملك بيتين في البناية. وحين ترنّ إحدى قريباتها الجرس من المدخل تشير عليها، بعد أن يطل رأسها من أعلى الفرجة في الطابق الخامس، أن تصعد إلى الطابق الثالث حيث ستوافيها إلى هناك. تصل عمتي قبل ضيفتها إلى البيت وتتصرف أمامها كأنها في راحة زائدة.

الرجل الذي في الطابق الثاني سقط إلى الطابق الأرضي حين فتح الباب وخطا باتجاه الصالون الذي أراد أن يختبىء فيه. سقط على الركام. وحين استفاق، نظر إلى الأعلى ورأى كيف سقطت حجارة وجدران من بيته.

هو أكثر البيوت تضرراً في البناية، هو وبيت الكيلاني. كان الرجل وحده في البيت. أرسل العائلة إلى الجبل البعيد عن القصف وبقي كي يتابع أشغاله القليلة.

في اليوم الثاني كان المارة المتوقفون للمشاهدة يحدّقون كثيراً في الطابق الثاني. كان فيما بقي منه كأنه غرف عارية مفتوحة أمام المارة. على الحلقة المعدنية التي قرب المغسلة ما زالت المنشفة مدلاّة، وأواني المطبخ خرج بعضها من الباب المفتوح وتناثر على

ما بقي من الممشى وعلى الركام في الطابق الأرضي. كنباية في الزاوية، الثريا والورق اللاصق الذي يغطي الحائط، كان المارة فيما يشاهدون القسم الباقي من البيت كأنهم يدخلون إليه متلصّصين مختلسين النظرات. والمنشفة المتدلية أوحت بامرأة كانت تخظر بين الغرف والمماشي.

المارة المحدقون لم يجتذبهم بيت الكيلاني. كان الحائط الداخلي الذي يظهر لهم منه مبقّعاً بلطخ من آثار الأكف الوسخة، وعلى سطحه انتشرت كتابات طفلية بأقلام سميكة. رسوم لوجوه مستديرة ارتفعت من قمتها خطوط تشبه خيوط الشمس في الرسم القريب على الحائط نفسه.

بيت المهجر في الطابق الأرضي كان فارغاً. حمل هو وزوجته الأغراض القليلة وذهبا بها إلى الضيعة. كان ما يظهر من بيت الكيلاني فارغاً. لم تعلّق أم إبراهيم شيئاً على الحيطان، ولم تضع منشفة على حلقة المغسلة.

حين دوى الانفجار كان الساكنون قليلين في البناية. غادرت النسوة بعد أن أرعبهنّ ما حدث لماتيلد. بعضهن كن يخفن حين يصلن إلى فسحة الدرج أمام بابها فيسرعن وهن طالعات أو نازلات. عمتي أكثر ما يخيفها في بيت ماتيلد الحمّام العربي. رأت أن الماء الكثير الذي سُكب على بلاطه لم يفلح في إزالة آثار الزنخ الذي في الدم الجاف. كانت تخاف من حمام ماتيلد العربي ووصل خوفها إلى حمامها المشابه، إذ صارت كلما مرت قرب بابه أو تحسّست زر الكهرباء الذي في الجهة الداخلية من حائطه ترتعش وتقشعر. تشعر بوهن مفاجئ في وسطها حين ترتسم أمامها ماتيلد الممدّدة على البلاط وفوقها اليدان المعروقتان تقومان بحركات غامضة.

كان الساكنون قليلين. عائلة بيت الناطور غادرت لشدّة ما

عنف القصف في الأيام السابقة على انفجار البناية. كان سقف بيتهم الزنكي يكاد يتهاوى من شدّة الأصوات المتتابعة. الأصوات وحدها كانت كافية لجعل البيت ينعطف على واحدة من جهاته. راح الرجل يحثّ امرأته وأولاده على أن يسرعوا كأنه عيّن وقتاً محدداً لسقوط قذيفة في منتصف قطعة الأرض. سائق السيارة الذي كان ينتظرهم أمام الباب كان أكثر إلحاحاً. راح يهدّدهم بأنه سيرمي صرر الثياب والأمتعة التي حزمها في صندوق السيارة وعلى سطحها.

المارّة الذين احتشدوا أمام البناية إثر الانفجار كانوا يقولون بأن احداً قد وضع المتفجرة في الداخل. عمّتي في وصفها لما آلت اليه البناية قالت إنها مثل باذنجانة فارغة. وقفت تحت الدرج ونظرت إلى الأعلى. قالت إن صاحب الملك أفرغ البناية من الدرج كي لا يعودالساكنون قادرين على الصعود والنزول.

مدام لور لم تسمع شيئاً غير عادي في بيت ماتيلد تلك الليلة. وحين وقفت على الدرج بين الجيران والدركيون يسوقونه إلى الخارج كانت ترتعش وتختبىء خلف عمتي. قالت للمحققين إنها لا تعرف شيئاً عن الحادثة. يأتي إلى بيت ماتيلد وينام عندها ويأكل لقاء مبلغ شهري. قالت لهم إنها حتى لا تعرف في أي الغرف كان ينام.

خافت منه على الدرج وهو بين بنادقهم وثيابهم الخاكية، كذلك خاف منه الجيران الآخرون. حين بصقت عمتي عليه أمام الدركيين لم يعترضها أحد منهم. قالت له كلمات وقعت في أذن الضابط كالشتائم التي يتداولونها في المحاكم. وحدها عمتي انتقمت لماتيلد ببصقة أخطأته لكن دوّت كصفعة كبيرة. مدام خيّاط كانت خائفة ولم تستطع ان تكمل التحديق فيه.

لم ينم أحد في البناية تلك الليلة. مدام لور أيضاً كانت تتوهّم

أنها تشمّ رائحة الزنخ تنبعث من نافذة الحمام العربي الصغيرة. سألت زوجها ماذا سيفعلون ببيت ماتيلد. وعندما رحل المحققون والدركيون كانت تلك هي المرة الأولى التي ترى فيها ختماً بالشمع الأحمر. كان شمعاً حقيقياً، لكن أحمر. كان البيت مقفلاً ومختوماً بالشمع الأحمر. وحين تمرّ أمامه في الصعود والنزول، تسرع الخطى ولا تطمئن إلا حين تصل إلى انعطافة الدرج التالية.

لم يطمئنها الباب المقفل. ظلت تتوهم أشباحاً وأصواتاً ودماء تمتدّ على البلاط في خيوط عريضة. بل ربما حسبت أن إقفال البيت لا يمنع الخوف بقدر ما يزيده. تتخيلهم يتحرّكون وقد غيّروا معالم البيت ومواضع الأثاث فيه، وحين جلست على سريرها استعداداً للنوم، راحت لأول مرة تحسب ماذا يقع تحتها مباشرة من بيت ماتيلد.

حين دوى الانفجار كانت تنام هي وزوجها في سريرين منفصلين. أبراهام كان وحده بين سكان البناية الذي توجه الى الشرفة الكبيرة. لم يجد هناك شيئاً. افترض أنه أخطأ مرة أخرى في تقدير سقوط القذيفة. نادته زوجته من الباب، وحين قرّب رأسه محدقاً في الأسفل شاهد غباراً كثيفاً منعه من رؤية مدخل الطابق الأرضي. أطلق صيحة لكن لم يجبه أحد، وبعد قليل سمع صوت ارتطام الرجل الذي يسكن في الطابق الثاني بالركام.

أبراهام رغب أن يفعل شيئاً لكن لم يستطع. كانت الدرجات نحو الطوابق السفلى قد تكسرت أو تهاوت، وحين همّ بأن يصعد باتجاه الطوابق العليا منعته زوجته خوفاً من انهيارات لاحقة. بيت السبليني الذي بقربه ما زال مقفلاً رغم أن لوحيْ الزجاج قد سقطا من مواضعهما على الباب. أمسكته زوجته وجرّته إلى الداخل. وقفا في المطبخ ينظران من بابه إلى الشرفة الكبيرة. هبّت عليهما نسمة باردة. قال لزوجته أن تقفل قنينة الغاز.

حصل الانفجار بعد أن توقّف القصف بساعتين كاملتين. وحين بدأت أصوات تأتي من الطريق عرف أن رجالاً من حي المنلا أتوا ليشاهدوا ما حدث للبناية.

كان الناس قد تجمعوا قرب سيارتي الدرك ومنهم من دخل إلى البناية ووقف على الدرجات في الطابق الأول. قالت عمتي إنهم لن يفعلوا له شيئاً. وحين اندفع من الباب ويداه مكبّلتان كان يطلق سيلاً من الكلام لا ينتهي. حرص أن يكثر من الكلام الفصيح. وحين أطلقت عمتي شتائمها كانت كأنها تردّ عليه بلغة المحامين ذاتها. لم يتوقّف كلامه، وحين أطلق بصره باتجاهها ارتعبت وتراجعت قليلاً إلى الخلف. تقدّمت مستنفرة إلى الأمام حين ركله واحد من العسكريين بكعب بندقيته على ظهره.

قال ساكنو البناية إنه ذكي وسيجد طريقة للخروج من الحبس. ارتعدت مدام لور، وعمتي فكرت أن تضع مزلاجين من الفولاذ، سميكين، واحداً في أعلى الباب وآخر في أسفله. كانت تعجب كيف يستطيع ذلك رجل في مثل حجمه، وفي أحاديثها اللاحقة عنه لم تغفل عن ذكر قصره ونحوله في كل جملة تقولها.

حين وجدوا أشلاء من جثة ماتيلد في البورة القريبة كادت تهوي مدام خيّاط كسلم يقع على الأرض. وجد الأولاد أشلاء أخرى مدفونة في مكان آخر من البورة. وحين استفاقت مدام خيّاط من إغمائها قالت إنها سمعت صوت ماتيلد المستغيث لكن لم تصدق ذلك. أطلقت ماتيلد صرختين ثم سكتت. قالت مدام خيّاط في وقت لاحق إنها ظنت أنهما ربما يتشاجران لذلك أكملت المسلسل الذي كانت تتابعه على التلفزيون.

كانت عمتي وحدها في البناية. لم يقف أحد من الساكنين على النوافذ الكبيرة التي تضيء الدرج وتفصل بين الطوابق. لم يفتح أحد بابه. من باب ماتيلد المخلوع بان رفّاص السرير الذي أخرجه الانفجار إلى أقصى الردهة الكبيرة. كان عتيقاً ومجوراً من أكثر من موضع. من الباب أيضاً ظهرت قدم الطاولة وزاويتها، قديمة وبالية. الركام الذي طلع من بيت ماتيلد بقي فيه. ملأ المشى وبعضاً من الصالون واقتحم باب الحمام العربي.

مدام لور تعوّدت على بيت ماتيلد ولم تعد تخافه. وقفت قرب زوجها وهو يرفع درفة الباب كي يضعها عارضة بين دفتيه. وضع ألواحاً خشبية في الوسط وأثبتها بمسامير كثيرة. ظلّت مدام لور واقفة بقربه. نظرت إلى زنديه العريضين فيما هو يرفع درفة الباب الثقيلة. طوى كمّي قميصه حتى أعلاهما. في قطعة الأرض الواسعة، بعد الانفجار، كان نافخاً صدره ومعلياً يديه وفي عينيه فتوّة سائقي السيارات العمومية. اجتمعوا هناك، وضع لهم الرجل الذي يسكن في بيت الناطور كراسي في الفيء. أطلّوا

واحداً واحداً. زوج عمتي كان غاضباً عاقداً ما بين حاجبيه. شابت شعرات كثيرات في رأسه، وفرغت بقعة منها فوق الجبين. ومثل ابراهام، راح يبعد يديه قليلاً عن جسمه. لكن، منذ جلس على الكرسي بان فراغ في فمه، في مساحة سنّين جانبيين أو ثلاثة.

كانت عمتي وحدها في البناية. غادروا جميعاً. قالت لم يبق إلا بيت أحمد السبليني، سيأتون في أيام ويأخذون ما تبقى من الأثاث. مدام لور غادرت، والرجل الذي في الطابق الثاني وجد صعوبة في إخراج ما بقي صالحاً من أثاثه. بيت الكيلاني لم يرجعوا إلى بيتهم منذ الانفجار. كانت حبات النمش التي في أعلى ظهر أمّ إبراهيم قد تكاثرت على جلدها البارد البض. لم تنتبه إلى انكشافه أمام المحتشدين في الأسفل حين حملها الأطفائي على كتفه وأنزلها على السلم المعدني الطويل. في الأسفل كان اطفائيان آخران يركّزان الضوء عليها وعلى الأطفائي وعلى درابزين الشرفة. أنزلها. وقد ظنها المحتشدون في الأسفل غائبة عن الوعي وهي مستلقية على كتفيه. ظنوا ذلك حتى وطئت قدمها الأرض. وقفت. كانت ذاهلة وهي تنظر إلى الأعلى حيث الشرفة.

لم تجتمع معهم في قطعة الأرض. كانوا رجالاً فقط. لكن كأنهم يبحثون عن أحد يساعدهم في الوقت الذي لم يبخل أحد منهم في إظهار بعض حركات توحي بالقوة. أتى الرجل الساكن في بيت الناطور وقدّم لهم قهوة. لم يسألوه عن رأيه. وقف بين كرسيّين لكن لم يتكلم. اتفقوا على أن صاحب البناية هو الذي وضع المتفجرة. قالوا لأنها انفجرت بعد ساعتين من وقف إطلاق النار. أحمد السبليني قال إنه يعرف محامياً جيداً. الرجل الذي في الطابق الثاني قال إنه يعرف محامياً آخر وهو أحد أقربائه.

دارت عليهم ورقة كُتبت في أعلاها سطور قليلة. وافقوا. ضحكوا قليلاً وغضبوا. قال السبليني إنه يتطوّع لمقابلة صاحب البناية مع شخص آخر. وقف أبراهام. وبين الحين والحين كان يدخل أحد من باب قطعة الأرض الحديدي، يشاهدونه من مكانهم في الفيء فيما هو يقترب. يصل. ويهنئهم بالسلامة واحداً واحداً.

كانت عمتي وحدها في البناية. بيتها لم يتغير من الداخل، حتى أنها ما زالت تسقي الزريعات التي وضعتها في التنك على طول الشرفة الكبيرة وعرضها. كل البناية فارغة ما عدا بيتها. بدا كأنه جناح في فندق ساحلي قديم. لن تسمع صوت المقلى يشتعل فجأة ثم ينطفئ. في بيت مدام لور. لن ترى مريلة المطبخ النظيفة. قالت إنها انتظرت وقتاً طويلاً قبل أن تتمكّن من الصعود إلى البيت. كان مدخل البناية مختلاً ومضحكاً وقد أزيحت منه الحديقتان الصغيرتان اللتان تحت نافذة بيت الروس ونافذة الشقة الأخرى الملاصقة. ازيحتا بعد أن تقدّم مدخل البناية قليلاً إلى الأمام. كان إسمنتياً وبلا لون. بل وإنه بدا مائلاً على إحدى جنبتيه.

كان الساكنون قد شاركوا جميعاً في بناء الدرج وترميم مدخل البناية. كلّفهم ذلك أقلّ مما كانوا يتوقّعون. لم يغيّروا شيئاً في بيتي الطابق الثاني، بل إنهم ربما أقروا ببقاء البيتين خاليين ولذلك أعلوا عمودين شاهقين من أرض الطابق السفلي إلى حيث كان مدخلا البيتين. كان العمودان في وسط الفناء الذي يلي المدخل. وقد تساءل الساكنون عن فائدتهما طالما أن الدرج كان قائماً بدونهما. بيت الكيلاني حافظ على لطخ الأكف وعلى الرسوم الطفلية على جدرانه. وسقطت المنشفة من حلقة المغسلة المعدنية في البيت الثاني.

كأنهم بنوا الدرج لتصعد عمتي وحدها عليه. وضعوا درابزيناً جديداً على طول الدرجات في الطوابق الثلاثة الأولى. كانت من الحديد غير المطلي. لكن اسمنت الدرج العاري وحديد الدرابزين جعلا البناية تبدو لناظرها أصلب وأقوى مما كانت.

انتظرهم صاحب البناية حتى أكملوا بناء الدرج والمدخل واستدرجهم واحداً واحداً. في أول التفاوض طلبوا مبالغ خيالية لقاء المغادرة. اجتمعوا وفيما هم يتناقشون أتاهم نبأ قبول أم إبراهيم الكيلاني بالإخلاء. كانت خارج بيتها. وكذلك كان الرجل الذي في الشقة الثانية. قَبِل هو أيضاً بعد مدة. استدرجهم جميعاً. ما عدا عمتي التي بقيَت وحدها في البناية، في الطابق الخامس العالي، كأنه جناح في فندق ساحلي قديم.

لن ترضى إلا بالمبلغ الذي طلبته في البداية. قال لها المحامي إن صاحب البناية لا يستطيع أن يفعل شيئاً. كان متحمّساً وشاباً وأعطى كل أيامه لهذه القضية وحدها. يأتيها بالأخبار تباعاً. حيناً تراه على الدرج وحيناً على مدخل البناية، وكثيراً في حي المنلا المزدحم. كانت قضيته الأولى، لذلك بلغ ما بذله فيها من العرق واللهاث حداً جعل عمتي توقن أنها ستخسرها لا محالة.



المطابع التعاونية الصحفية ش م ل، بيروت، لبنان
شباط ١٩٩٩

كانت عمتي وحدها في البناية، غادروا جميعاً. قالت لم يبق إلا بيت أحمد السبليني. سيأتون في أيام ويأخذون ما تبقى من الأثاث. مدام لور غادرت، والرجل الذي في الطابق الثاني وجد صعوبة في إخراج ما بقي صالحاً من أثاثه. بيت الكيلاني لم يرجعوا الى بيتهم منذ الانفجار. كانت حبات النمش التي في أعلى ظهر أمّ إبراهيم قد تكاثرت على جلدها البارد البض. لم تنتبه الى إنكشافه امام المحتشدين في الأسفل حين حملها الإطفائي على كتفه وأنزلها على السلم المعدني الطويل. في الأسفل كان اطفائيان آخران يركّزان الضوء عليها وعلى الإطفائي وعلى درابزين الشرفة. أنزلها. وقد ظنها المحتشدون في الأسفل غائبة عن الوعي وهي مستلقية على كتفيه. ظنوا ذلك حتى وطئت قدمها الأرض. وقفت. كانت ذاهلة وهي تنظر الى الأعلى حيث الشرفة.

حسن داوود

روائي وصحافي من مواليد بيروت عام ١٩٥٠

من مؤلفاته:

- **أيام زائدة**، رواية، دار الجديد، بيروت ١٩٩٢
- **سنة الاوتوماتيك**، رواية، دار النهار، بيروت ١٩٩٦
- **غِناء البطريق**، رواية، دار النهار، بيروت ١٩٩٨



الغلاف عن صور

ISBN 2-84289-116-3